

دعوة الحق
سلسلة شهرية
تصدر مع مطلع كل شهر عربي

صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية

تأليف
الدكتور احمد السيد دراج



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ، وبعد :

فالغاية من هذا البحث عن ديوان الإنشاء ونظم العمل به في العصور الإسلامية(١) هي تعريف المسلمين بجانب مشرق من جوانب حضارتهم في عصور ازدهارها ، فالذين تصدوا من المؤرخين المحدثين للحديث عن النظم الإسلامية لم يتحدثوا عن ديوان الإنشاء – الذي كان يعرف أيضاً بديوان الرسائل – إلا حديثاً عاماً مجملا لا يساعد القاريء المسلم على التعرف على هذا الجانب المشرق من النظم الإسلامية ، بل ولا يساعد الباحث المسلم المتخصص على تفهم صحة ما يشيعه الأوربيون في كتاباتهم من اتهام المسلمين بالاهمال في حفظ تراثهم ؛ هذا الاهمال الذي ينسبون إليه في الدرجة الأولى تخلف الشعوب الإسلامية في عصرنا الحاضر .

ويذهب الأوربيون في الاستدلال على هذا الاتهام مذهبين :

* أولهما : ضياع معظم التراث الإسلامي ، وعلى وجه التخصيص ، ضياع

١ – المقصود بالعصور الاسلامية هى تلك التى امتدت منذ صدر الاسلام حتى بداية القرن العاشر الهجرى ، فقد اصطلحت الغالبية الكبرى من المؤرخين على اعتبار الفتوحات العثمانية للشرق الاسلامى بداية للعصور الحديثة · ولا يسمح المجال هنا للتصدى لهذا الرأى ، وان كنا قد أخذنا به – فيما يختص بهذا البحث – لان دواوين الانشاء لم يعد لها وجود فى مختلف البلاد الاسلامية التى خضعت للعثمانيين ، فقد تحولت الى دور للمحفوظات · كما أننا لا نعرف شيئا عن ديوان الانشاء فى الدولة العثمانية اذا كان قد وجد بها ·

الوثائق الأصلية العربية التي كانت محفوظة في دواوين الإنشاء في كافة الدول الإسلاميـــة على امتداد العصور الإسلامية الوسيطة ، والتي حلت محلهـــا في عصرنا الحاضر في البلاد العربية والإسلامية دور الوثائق القومية (دور الأرشيف) .

* وثانيهما : ما يتباهى به الأوربيون من أن ما وصل إلى عالمنا المعاصر من هذه الوثائق الأصلية العربية على قلتها إنما وصل بفضل عنايتهم في حفظها في دور وثائقهم القومية(١) ، ومن أن الأغلبية الكبرى من المخطوطات العربية التي وصلت إلينا إنما وصلت بفضل عنايتهم في جمعها وحفظها في مكتباتهم العامة والخاصة .

وللأسف الشديد ينطلي هذا الاستدلال على كثير من المثقفين في العالم الإسلامي ، ولا سيما من تأثر منهم بالثقافة الغربية . وهؤلاء لهم العذر في ذلك إلى حد بعيد لأن هذا الاستدلال الذي يسوقه الأوربيون لإبراز دورهم في عصرنا الحديث في حفظ التراث الإسلامي لا يعني إهمال المسلمين في حفظ تراثهم في عصور مجدهم وازدهارهم الحضاري . وفي نفس الوقت لا يبريء الأوربيين من الدور الذي قام به الصليبيون والمستعمرون ومن سار في خدمتهم من التراجمة والمستشرقين في نهب تراثنا وكنوزنا الإسلامية بعد أن تغلبوا على معظم ديار العروبة والإسلام وأزاقوا شعوبها مختلف ألوان القهر والهوان ، فكان ذلك في مقدمة العوامل الرئيسية التي أدت إلى تخلف الشعوب الإسلامية .

وإذا كان دور الاستعمار واضحاً في هذا الصدد فإنه لا يخفى على الباحث المنصف في تاريخ الأمة الإسلامية وحضارتها ما تعرض له العالم الإسلامي

---

١ ـ عن الوثائق العربية المحفوظة فى دور الارشيف الاوربية انظر مقالنا المنشور ضمن أبحـاث الندوة الدولية لتـاريخ القاهرة « مارس ـ ابريل ١٩٦٩م ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٠م » .

من عوامل تخريبية مدمرة كان معظمها خارجاً عن إرادته ويعزى إليها ضياع جانب كبير من تراثنا وكنوزنا .

فالغزو المغولي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، ومن بعده الغزو التيموري في أوائل القرن التاسع الهجري ، كانا مدمرين للكثير من معالم الحضارة الإسلامية في المشرق الإسلامي .

وحركة الاسترداد المسيحية استمرت تلتهم شيئاً فشيئاً الممالك الإسلامية في الأندلس حتى نجحت في آخر القرن التاسع الهجري في القضاء على مملكة بني نصر آخر هذه الممالك الإسلامية ، وبذلك قضت على الوجود العربي الإسلامي كلية في أسبانيا .

وأما المغرب الإسلامي فقد تعرض منذ منتصف القرن الخامس الهجري للغزوات المدمرة لبني هلال وبني سليم التي كانت أشبه بغارات الجراد التي قضت على معالم الحضارة العمرانية به . كما أنه ابتلي في الفترة التالية التي امتدت حتى بداية القرن العاشر الهجري بتعاقب عدد كبير من الدول التي دفعت به في خضم الحروب والمنازاعات السياسية والعنصرية والأسرية والمذهبية ، ثم انتهت به أخيراً إلى زوال وحدته . هذا فضلا عن أن القائمين بأمر هذه الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الإسلامي كان لهم – كما يقول ابن خلدون – رسوخ في البداية ، ولم يبدأوا بمتابعة المسيرة الحضارية للأمة الإسلامية إلا بعد أن تعدوا دور البداوة وأدركتهم الحضارة .

وسيتضح للقاريء من خلال هذه الدراسة لديوان الإنشاء ونظم العمل به في العصور الإسلامية مدى تقدم النظم التي كانت مطبقة في دواوين الإنشاء في الدول الإسلامية المختلفة سواء من حيث الكتابة وتنوع أغراضها وأساليبها أو من حيث نظم العمل بها ابتداء من توقيع الخليفة أو الوزير أو السلطان على

القصة أو المكاتبة وانتهاء بإثباتها وقيدها في الديوان - فهذه النظم لا تقل ، إن لم تكن تتفوق على النظم المطبقة حالياً في دور الوثائق الأوربية .

هذا ولم تكن هذه الدراسة سهلة ميسرة ، إذ ليس لدينا عن العصور الإسلامية الأولى منذ عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، حتى سقوط الخلافة العباسية مصادر انفردت بالحديث عن ديوان الإنشاء وعن صناعة الإنشاء . فكل ما وصل إلينا عن هذا الموضوع لا يعدو بعض الأخبار المتناثرة عن الكتابة والكتّاب والتي جاءت عرضاً على لسان بعض المؤرخين من خلال حديثهم عن الحكومة الإسلامية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عصر الخلفاء الراشدين أو من خلال حديثهم عن تطور نظم الحكم مع نشأة الدواوين في خلافة عمر بن الخطاب ، ثم في العصرين الأموي والعباسي ، وعلى وجه التخصيص بعد أن استحدثت الوزارة مع قيام الدولة العباسية(١) . ولكي يتسنى للقارىء الإلمام بنشأة ديوان الإنشاء وبتطوير أوضاعه خلال هذه العصور الإسلامية الأولى كان على الباحث أن يتحدث في إيجاز عن نظم الحكم في الدولة الإسلامية منذ قيامها في عصر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا سيما ما كان منها متصلا بالكتابة والكتّاب وديوان الإنشاء . وهذا ما أفردت له الباب الأول من هذا البحث .

---

١ - أنظر فى هذا الصدد المصادر التالية :
- الماوردى : الاحكام السلطانية
- الجهشيارى : الوزراء والكتاب
- الصولى : أدب الكتـاب
- هلال الصاب : تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء
- قدامه بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج
- أبو يوسف : كتاب الخراج
- مسكويه : تجارب الامم .
- ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية .
- ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة .

أما في العصور الإسلامية المتأخرة ، وعلى وجه التخصيص في مصر في العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ) فالمصادر المتخصصة التي تتحدث في إسهاب عن صناعة الإنشاء وعن ديوان الإنشاء ونظم العمل به فعديدة وفي متناول الباحثين سواء ما طبع منها أو ما يزال مخطوطاً في المكتبات العامة . ذلك أن الحروب المدمرة التي تعرض لها المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي - والتي أشرت إليها من قبل - أدت إلى انحسار الحضارة الإسلامية في مصر والشام والحجاز التي كانت تتكون منها الدولة المملوكية والتي أصبحت قلب العالم الإسلامي ومركز الإشعاع الحضاري للمسلمين بفضل ما تحقق لها من انتصارات كبرى للإسلام على الصليبيين والمغول ، وبفضل قيام الخلافة العباسية من جديد في القاهرة بعد سقوطها في بغداد على يد المغول .

ففي بداية العصر المملوكي كان صاحب ديوان الإنشاء مرجعه إلى الوزير ، كما كان الحال في العصر العباسي . غير أنه لما شاعت تسميته على ألسنة الخاصة والعامة بكاتب السرّ منذ أوائل عهد السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩ هـ) استقل بديوان الإنشاء عن الوزير وأصبح هو الذي يتلقى المرسوم عن السلطان ، ثم ما لبث بعد ذلك أن ازدادت رتبته ومكانته شيئاً فشيئاً حتى أصبح منذ أوائل القرن التاسع الهجري يتقدم الوزير وجميع أصحاب الوظائف الديوانية في الدولة ولا يتم اتصال نظّار الدواوين الأخرى بالسلطان إلا عن طريقه ، كما أصبح لقبه الرسمي « ناظر دواوين الإنشاء بالممالك الشريفة السلطانية(١) » . وصاحب ذلك ازدياد اختصاصاته فشملت معظم المهام الكبرى للدولة نظراً وتصريفاً وبخاصة بعد أن اتسعت اختصاصات ديوان الإنشاء على حساب

---

١ - كانت الدولة المملوكية تشتمل على تسع نيابات أو ممالك ، اثنان منها فى مصر ، وسبعة فى الشام . وفى العصر المملوكى كان ناظر الديوان أعلى فى الرتبة من صاحب الديوان - انظر بعد .

الدواوين الأخرى التي كانت طبيعة التطور في الدولة الإسلامية في عصورها الأولى قد اقتضت إنشاءها مثل ديوان البريد وديوان الخاتم في العصر الأموي ، وديوان الفض وديوان التوقيع في العصر العباسي .

بل إنه في الأوقات التي كان فيها كاتب السر أو « ناظر دواوين الإنشاء بالممالك الشريفة السلطانية » ذا حظوة عند السلطان كان نفوذه يفوق نفوذ أكبر الأمراء من مقدمي الألوف أصحاب الوظائف السيفية الكبرى في الدولة ، أي أنه أصبح أعظم أهل الدولة وصاحب الحل والعقد بها .

ونظراً لهذا الفيض الكبير من المعلومات عن ناظر دواوين الإنشاء بالممالك الشريفة السلطانية الذي أصبح يعرف في لغة أهل العصر بكاتب السر وعند العامة بكاتم السر سواء من حيث علو رتبته وتعدد اختصاصاته ، وكذلك عن أصحاب الوظائف بديوان الإنشاء واختصاصات كل منهم ، فقد خصصت للحديث عن ذلك الأبواب الأربعة التالية من هذا البحث .

والله ولي التوفيق . .

مكة المكرمة في شهر ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ

فبراير ١٩٨٠ م

دكتور أحمد السيد دراج

الباب الأول

ديوان الإنشاء

نشأته وتطوره في العصور الاسلامية الاولى

(منذ عصر الرسول حتى نهاية العصر العباسى)

- قيام الحكومة الاسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ·
- كتّاب النبى صلى الله عليه وسلم وديوان الانشاء (ديوان الرسائل) ·
- الحكومة الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين وتدوين الدواوين (ديوان الجند ـ ديوان بيت المال ـ ديوان الرسائل) ·
- تطور نظم الحكم فى العصر الاموى (ديوان الرسائل ـ ديوان الخاتم ـ ديوان البريد) ·
- تطور نظم الحكم فى العصر العباسى (الوزارة ـ ديوان الانشاء ـ ديوان التوقيع ـ ديوان الفض) ·
- الكتابة وديوان الانشاء والوزارة فى مصر منذ عصر الولاة حتى نهاية العصر الايوبى)·
- الكتابة والوزارة فى الاندلس وفى المغرب ·

(قيام الحكومة الاسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم)

[illegible]ت بيعة العقبة الأولى على التصديق والطاعة لله وللرسول وقول الحق في [illegible]ـه(١) ، بينما كانت بيعة العقبة الثانية على السلم والحرب(٢). وقد وفرت بيعة العقبة الثانية للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، القـــوة التي كان يبحث عنها لحماية الدعوة الإسلامية والمسلمين ، كما وفرت للأوس والخزرج الوحدة والقوة أمام القبائل اليهودية الثلاث في يثرب(٣) .

ثم كانت بعد ذلك هجرة الرسول إلى يثرب ، وكذلك هجرة من آمن به وبدعوة الإسلام من أهل مكة ، وهم الذين عرفوا في تاريخ الدعوة الإسلامية بالمهاجرين . وفي يثرب أصبح سيدنا محمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، رئيساً للجماعة الإسلامية من الأنصار والمهاجرين الذين عاهدوه على نصرة دين الله ونصرته ، وعلى طاعة الله وطاعته . وبذلك أقام الرسول في المدينة نواة المجتمع الإسلامي ونواة أول حكومة إسلامية تقوم على مباديء الدين الإسلامي ، وتهدف إلى نشر الإسلام بين الناس كافة(٤) .

---

١ ــ ابن هشام : سيرة النبى ، ج٢ ، ص ٢٩٥ ، ٢٨٩ .

٢ ــ نفس المصدر : ج٢ ، ص ٣٠٢ ــ ٣٠٣ ، ٣١١ .

٣ ــ فرج الهونى : النظـم الادارية والماليـــة فى الدولة العـــربية الاسلامية (منذ قيام حكومة الرسول بالمدينة حتى نهاية الدولة الاموية) ، ص ٢٢ ــ ٢٤ .

٤ ــ وهبه الزجيلى : نظام الاسلام ، ص ٢٦٣ .

وتتمثل الخطوة الأساسية في إقامة الحكومة الإسلامية بالمدينة في الصحيفة التي عقدها الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، مع اليهود بصفته رئيساً للجماعة الإسلامية من المهاجرين والأنصار . وكان الدافع إلى عقد هذه الصحيفة حرص الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، في أول عهده بالمدينة على تحقيق الوحدة للمجتمع المدني ، للدفاع عن المدينة وعن الدعوة الإسلامية ، إذ كان يعرف وهو القرشي الأصيل أن قريشاً لن تتركه ودعوته في مهجره الجديد .

وقد احتوت الصحيفة أهم المباديء التي يجب على المسلمين واليهود الالتزام بها في وقت السلم والحرب ، والتي تحدد طبيعة العلاقات بينهما في مجتمع المدينة . فقد أقرت الصحيفة الوحدة والتضامن بين الجماعة الإسلامية (وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس) . كما أقرت الحرية الدينية لليهود (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) ، مقابل التزام اليهود بموالاة المسلمين والوقوف معهم دفاعاً عن المدينة في حالة الحرب ، ومقابل تسليم اليهود للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بحق فض أي نزاع ينشأ ويخشى فساده بين أطراف الصحيفة وفقاً للشريعة الإسلامية « وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد » . فهذا النص يوضح اعتراف اليهود برئاسة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لحكومة المدينة التي تقوم على أساس الشريعة الإسلامية كما تضمنت الصحيفة مباديء هامة يلتزم بها المسلمون اليهود في حالة السلم والحرب ، وترك حرية العبادة لليهود ، وفي نفس الوقت فتح الطريق لمن يرغب منهم في اعتناق الإسلام ، « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . . وأن من اتبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » . كما تضمنت كيفية الدفاع عن المدينة « وأن بينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة . . . وعلى اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم » . وأخيراً أقرت الصحيفة حرمة المدينة وبذلك

كانت الصحيفة نواة التنظيم السياسي والإداري والعسكري لحكومة الرسول بالمدينة(١) .

(كتّاب النبى وديوان الانشاء « ديوان الرسائل »)

وقد استعان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بعدد من أصحابه ممن يعرفون الك... والكتابة في تدوين ما يوحى به إليه من آيات القرآن الكريم ، وفي كتابة رسائله إلى أمراء الأجناد وأصحاب سراياه من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وإلى ملوك الأمم المجاورة الذين دعاهم إلى الإسلام ، وفي كتابة كل ما يتعلق بأمور أهل المدينة من حوائج ومداينات ومعاملات وعقود ، وما يتعلق أيضاً بأموال الصدقات والغنائم ، وبكتب الهدنة والأمانات وغير ذلك من المكاتبات .

فقد كان للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، نيف وثلاثون كاتباً(٢) وهم : (أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعامر بن فهيره ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأبان أخوه ، وسعيد أخوهما ، وعبد الله بن الأرقم الزهري ، وحنظله بن الربيع الأسدي ،

---

١ ـ ابن هشام : سيرة النبى ، ج٢ ، ص ٣٤٨ـ٣٥٠ .
ـ محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الاسلامية فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، ص ٩٥ـ٩٦ .
ـ أبو زيد شلبى : تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى ص ٧٤ .

٢ ـ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج١ ص ٩٢ .
ـ يذكر الاستاذ يونس عبد الحميد السامرائى ، فى رسالته (السفارات فى التاريخ الاسلامى) من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، ١٩٧٦ ، أن كتّاب النبى يبلغ عددهم اثنين وأربعين ، أو ثلاث وأربعين كاتبا .

وأبي بن كعب ، وثابت بن قيس بن شماس ، وزيد بن ثابت ، وشرحبيل ابن حسنة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبه ، وعبد الله بن زيد ، وجهيم بن الصلت ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمي وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن رواحه ، ومحمد بن مسلمه ، وعبد الله ابن عبد الله بن أبيّ ، ومعيقب بن أبي فاطمه ، وطلحة بن زيد بن أبي سفيان ، والأرقم بن الأرقم الزهري ، والعلاء بن عتبه ، وأبو أيوب الأنصاري ، وبريدة بن الحصيب ، والحصين بن نمير ، وأبو سلمه المخزومي ، وحويطب ابن عبد العزى ، وأبو سفيان بن حرب ، وحاطب بن عمرو ، وعبد الله ابن سعد بن أبي سرح) .

وأول هؤلاء النفر من الكتّاب هم كتّاب الوحي ، ومنهم : أبي بن كعب الأنصاري ، وزيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، رضوان الله عليهم(١) .

كما كان علي بن أبي طالب ، والمغيرة بن شعبه ، والحصين بن نمير يكتبون حوائج الرسول والمداينات والمعاملات . وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان كاتبين خاصين للرسول يكتبان الحوائج بين يديه . وكان عبد الله بن الأرقم من أشهر كتاب الرسائل ، وقد بلغ من أمانته عند الرسول أنه كان يتولى كتابة رسائله إلى أمراء الأجناد والملوك ، كما كان يتولى مع العلاء بن عتبه الكتابة بين القوم في حوائجهم ومياههم وعقودهم ومداينآتهم ومعاملآتهم . وكان الزبير بن العوام ، وجهيم بن الصلت يكتبان للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، أموال الصدقات . وكان معيقب بن أبي فاطمة يكتب مغانم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان حذيفة بن اليمان

---

١ ـ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩١ .
الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

يكتب له خرص النخل . ولقب حنظلة بن الربيع بالكاتب ، لأنه كان يتولى الكتابة أثناء غياب أحد الكتّاب ، كما كان يحتفظ بخاتم النبي عنده .

وكان أكثر هؤلاء الكتّاب شهرة زيد بن ثابت الذي كان يجيد العربية والعبرانية ، فكان يقرأ كتب اليهود إلى الرسول ويرد عليها بالعبرانية . وقيل أيضاً أنه تعلم وهو بالمدينة اللغات الفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، وكان يترجم للرسول ما يوجه إليه من كتب بهذه اللغات .

وإلى جانب هؤلاء الكتاب كان هناك عدد آخر يتولى بعض المهام مثل نفقات الرسول والحجابة وكتابة أسماء الجند الذين كانوا يخرجون للجهاد في سبيل الله(١) .

وفي السنة السادسة للهجرة وبعد صلح الحديبية اتخذ الرسول له خاتماً يختم به رسائله ، وكان هذا الخاتم في باديء الأمر من ذهب ، إلا أن الرسول تركه بعد ثلاثة أيام واتخذ له خاتماً آخر من فضة . وقد نقش على هذا الخاتم « محمد رسول الله » وكان الرسول يلبسه إلى أن مات ، وأحياناً كان يحتفظ به كاتبه حنظلة بن الربيع . وقيل أن السبب في اتخاذه الخاتم أنه كتب إلى قيصر الروم كتاباً ولم يختمه ، فقال له أصحابه إن الملوك لا يقرأون كتاباً غير مختوم(٢).

وفي السنة السادسة من الهجرة كتب الرسول كتباً إلى الملوك المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وبعث إليهم رسله بكتبه هذه ، فبعث عمرو ابن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى أبرويز ملك الفرس ، ودحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك

---

١ ـ البلاذرى : انساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٣٥١ .
ـ المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٥ .
ـ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩١ .
ـ فرج الهونى : المرجع السابق ، ص ٣٠ـ٣٢ .
٢ ـ فرج الهونى : المرجع السابق ص ٣٢ـ٣٣ .

الروم ، وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس حاكم مصر ، وسليط ابن عمرو العامري إلى هوذه بن علي ملك اليمامه ، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني ملك دمشق ، وعمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجلندي صاحبي عمان ، والمهاجن بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث ابن عبد كلال الحميري ملك اليمن(١) .

وبعد أن أتت وفود القبائل العربية من مختلف جهات شبه الجزيرة العربية إلى الرسول في السنة التاسعة من الهجرة تبايعه على الإسلام وعلى الطاعة اتسع نطاق الحكومة الإسلامية في المدينة وامتد منها إلى بقية أطراف شبه الجزيرة العربية . وقد وكل الرسول إدارة هذه المناطق إلى رؤساء القبائل ، وعين عليها في نفس الوقت عمالا يعلمون الناس أمور الدين ويؤمونهم في الصلاة ويجمعون منهم الزكاة . كما أبقى الرسول حكام المناطق من الأمراء والملوك على أعمالهم ، سواء من أسلم منهم أو من قبل منهم دفع الجزية ، وقد سموا جميعاً الأمراء .

وكان الرسول يتخير عماله من ذوي الصلاح والدين والعلم ، ومن المنظور إليهم من العرب حتى يكون سلطانهم أقوى على المؤمنين وبذلك يحسنون العمل في ولاياتهم . ولم يكن يتركهم دون رقابة شديدة ، كما كان يحاسبهم إن وقعوا في خطأ ويستوفي الحساب عليهم على المستخرج والمصروف .

وأما أهل الذمة كيهود خيبر وفدك وتيماء ، ونصارى نجران وتبوك وأذرح وجرباء ودومة الجندل وغيرهم من القبائل النصرانية المقيمة في شمال الحجاز فقد صالحت الرسول على الجزية مقابل احتفاظها بعقيدتها . وعلى

---

١ ــ ابن هشام : سيرة النبى ، ج ٤ ، ص ١٠٢٥ــ١٠٢٦ .
ــ فرج الهونى : المرجع السابق ، ص ٣٧ ، ٣٩ .
ــ يونس عبد الحميد السامرائى : المرجع السابق ، ص ١٤٨ــ٢٠٢ ، ص ٢٠٨ــ٢٢٥ .

هذا الأساس تحدد وضع الأقليات من أهل الكتاب وعلاقتها بالدولة الإسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم(١) .

وهكذا اتسع نطاق إدارة الحكومة الإسلامية في المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتطلب الأمر هذا العدد الكبير من الكتّاب الذين أشرت إليهم آنفاً . ولذلك يذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن ديوان الإنشاء ـ أو ديوان الرسائل ـ إنما نشأ في المدينة زمن الرسول ، وأنه كان أول ديوان وضع في الإسلام(٢) .

ومما يدعم هذا الرأي أن عدد الكتب والمواثيق والعهود التي تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ المائتين وستة وأربعين كتاباً وصلت إلينا نصوصها في مصادر التاريخ المختلفة . وعلى رأس هذه الكتب تلك التي بعث بها النبي إلى الملوك والأمراء المجاورين يدعوهم فيها إلى الإسلام(٣) .

الحكومة الاسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين وتدوين الدواوين (ديوان الجند ـ ديوان بيت المال ـ ديوان الرسائل)

وسارت إدارة الحكومة الإسلامية على النمط الذي كانت عليه في عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، طوال عهد أبي بكر وفي عهد عمر ، رضي الله عنهما ، إلى أن قام عمر بتدوين الدواوين . فقد اتخذ أبو بكر عثمان بن عفان ، رضي الله عنهما ، كاتباً له يكتب إلى العمال والقواد .

١ ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ص ١٥٥ـ١٦٤ (تأمين حدود بلاد العرب الشمالية وتوطيد سلطان المسلمين عليها) .
ـ فرج الهونى : المرجع السابق ، ص ٤١ـ٤٥ .
٢ ـ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩١ .
ـ فرج الهونى : المرجع السابق ص ٣٣ .
٣ ـ انظر محمد حميد الله الحيدر آبادى : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ـ طبعة لجنة التاليف عام ١٩٤١م ، ص ١ـ٢٠٠ .

وكان من كتابه أيضاً زيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب (١) ، وعبد الله ابن الأرقم ، وحنظلة بن الربيع(٢) ، وعبد الله بن خلف الخزاعي(٣) ، رضي الله عنهم . وفي شئون المال والقضاء اعتمد على اثنين من كبار الصحابة هما أبو عبيد الله بن الجراح ، وعمر بن الخطاب ، رضي الله عنهما . أولهما كان يعاونه في شئون المال ، وثانيهما كان يعاونه في شؤون القضاء(٤) .

واتخذ عمر بن الخطاب زيد بن ثابت ، وعبد الله بن خلف الخزاعي(٥) ، وعبد الله بن الأرقم(٦) ، رضي الله عنهم ، كتّاباً له .

واتخذ عثمان بن عفان مروان بن الحكم كاتباً خاصاً له ، كما كان من كتابه أيضاً عبد الله بن مروان على ديوان المدينة وأبو جبيرة الأنصاري على ديوان الكوفة . وكان من أشهر كتاب عثمان أيضاً أبو غطفان بن عوف ابن سعيد بن دينار من بني دهمان واثنان من مواليه هما : أهيب ، وحمران ابن أبان(٧) .

كما كان يكتب لعلي بن أبي طالب عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن جبير ، وسعيد ابن غزان الهمذاني ، رضي الله عنهم(٨) .

---

١ ـ القلقشندى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩٢ .
ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .
٢ ـ الجهشيارى : الوزراء والكتّاب ، ص ١٥ .
٣ ـ عبد الحميد يونس السامرائى : المرجع السابق ، ص ٤٤٩ .
٤ ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .
٥ ـ القلقشندى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩٢ .
٦ ـ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ١٥ .
٧ ـ الطبرى : نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ١٨٠ .
ـ الجهشيارى : نفس المصدر ، ص ٢١ .
٨ ـ الطبرى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

والتزم أبو بكر ، رضي الله عنه ، في حكم المسلمين بالكتاب والسنة ومشورة أهل الشورى . فكان إذا أراد معرفة حكم من الأحكام لجأ إلى القرآن فإن لم يجد لجأ إلى سنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يجد استشار كبار الصحابة ومن يثق بهم من أهل الرأي والعلم ثم قضى بما يجمعون عليه . وكان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، يتشددون في الاجتهاد بالرأي مخافة القول على الله وعلى رسوله بلا علم(١) .

كما اتخذ أبو بكر بيتاً للمال لحفظ أموال المسلمين قبل توزيعها عليهم . وكان بيت المال بمنطقة تسمى السنح(٢) بالمدينة إذ كان يتخذ سكناً له في تلك المنطقة وعندما انتقل أبو بكر إلى مكان آخر بالمدينة جعل بيت المال في داره . وكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى فيه شيء ، فلما توفي لم يجد فيه عمر بن الخطاب شيئاً غير دينار سقط من غراره(٣) .

وذهب عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إلى أبعد مدى في تطبيق مبدأ الشورى ، فقد أخذت مشاركة المسلمين في الحكم عن طريق الشورى في عهده ثلاثة صور : أولها التعاون في الوصول إلى حكم الشرع المستمد من القرآن والسنة ، وثانيهما الكشف عن الأخطاء الملازمة للحكم والإدارة ، وثالثهما الوصول إلى أحسن النظم وأحسن الحلول فيما يجد من الأمور(٤) . ومن أبرز الصحابة الذين كان يستشيرهم عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاذ بن جبل ، وأبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ،

---

١ ـ ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٤ ، ص ١٦٦ـ١٦٧ .

٢ ـ السنح هى احدى محال المدينة التى كان ينزل بها أبو بكر الصديق ، وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج بعوالى المدينة ، كان بينها وبين منزل النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ميل (انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ طبعة بيروت ، ص ٢٦٥) .

٣ ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

٤ ـ سليمان الطماوى : عمر بن الخطاب ، ص ١٠٨ .

رضوان الله عليهم(١) . وكان عمر بن الخطاب يجتمع معهم في المسجد النبوي بحضور أعيان المدينة ومن يفد عليها من زعماء القبائل ، كما كان يجمع عماله وولاته في مواسم الحج ويتشاور معهم في شئون الإدارة والحكم ويسألهم عن أحوال الرعية .

وقد استوجب اتساع سلطان الدولة الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية بعد فتح الأمصار أن يلائم عمر بن الخطاب بين نظام الحكم المطبق داخل شبه الجزيرة العربية ، وبين النظام الذي وضعه لحكم الأمصار الإسلامية وأن يحدد علاقة ولاة الأمصار بحكومة المدينة . ذلك أنه إذا كانت تبعية القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية وخضوعها لسلطان حكومة المدينة على النحو الذي شرحناه في عهد الرسول — وهو النظام اللامركزي — ، إلا أن الأمر اختلف بالنسبة لحكم الأمصار الإسلامية المفتوحة . فقد اقتضت الضرورة إخضاعها للحكم المركزي المباشر ، فكان عمر بن الخطاب هو الذي يصدر أوامره وتعليماته إلى الولاة والقواد والعمال في الأمصار ويتابع سير الإدارة فيها . كما كان له في كل مصر من الأمصار عيون لا يفارقون عماله وولاته وقواد الجند ، حتى أن ما يقولونه كان يصل إليه صباحاً ومساء(٢) .

ولهذا استوجب الأمر من عمر بن الخطاب أن يتخفف من أعباء الحكم حتى يجد من الوقت ما يسمح له بالنظر في شئون الأمصار . فعهد بالقضاء في المدينة إلى أبي الدرداء الصحابي المعروف وتمشياً مع هذه القاعدة فصل عمر القضاء عن سلطة الولاة والعمال في الأمصار ، وعين في كل مصر قاضياً يقضي بين الناس(٣) ، كما فصل سلطة عامل الخراج عن سلطة الوالي وجعله

---

١ — ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٤ ، ص ١٦٧ .
٢ — فرج الهونى : المرجع السابق ، ص ٩٨—٩٩ ، ١٠٠—١٠٦ .
٣ — الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٠١ .

مستقلا عنه . وبذلك استقر النظام الأداري في الولايات ، وأصبح إلى جانب الوالي القاضي وصاحب الخراج وكل منهم مسؤول أمام الخليفة يعينه ويعزله(١) .

كما قام عمر بن الخطاب بتدوين الدواوين وبذلك وضع اللبنة الأولى في تشكيل الجهاز الإداري للدولة الإسلامية الذي أخذ ينمو شيئاً فشيئاً إلى أن اتخذ صورته شبه النهائية في العصر العباسي . ففي عهدالرسول صلى الله عليه وسلم ،وفي عهد أبي بكر ، وفي السنوات الأولى من خلافة عمر لم يكن للأموال المقبوضة والمقسومة ديوان جامع ، بل كان يقسم المال شيئاً فشيئاً(٢) . فلما فتحت الأمصار ، وبخاصة بعد فتح أراضي سواد العراق في السنة الرابعة عشرة للهجرة ، تدفقت الأموال على المدينة ، وكثر تبادل الكتب بين عمر والقواد والولاة والعمال ، وهذا أدى إلى إنشاء ديوان العطاء وديوان الرسائل . وسواء أكان عمر دون الدواوين – كما سنرى – على النمط البيزنطي ، أو على النمط الفارسي ، فإن نظام العمل في هذين الديوانين في صدر الإسلام كان مبسطاً ويتمشى مع الطابع المبسط للإدارة الإسلامية في هذه الفترة .

فلما تدفقت الأموال على المدينة أصبح الأمر يستدعي تنظيم موارد الدولة ونفقاتها . غير أن عمر لم يكن يعرف السبيل إلى ذلك ، ويقال في هذا الصدد أن الهرمزان هو الذي أشار على عمر بتدوين الديوان على النمط الفارسي ، فقال له (يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً يجمعون فيه دخلهم وخرجهم ويضبطونه فيه لا يشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق إليها خلل) . فطلب منه عمر أن يصفه له ، فوصفه له الهرمزان .

---

١ – ابن رسته : الاعلاق النفسية ، ص ٣٣٩ .

٢ – ابو زيد شلبى : المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

ويقال أيضاً أن الذي أشار عليه بذلك هو خالد بن الوليد . وفي رواية أخرى الوليد بن هشام بن المغيرة ، فقد قال له (رأيت ملوك الشام يدونون) فقبل منه عمر(١) .

والديوان — كما يعرفه الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية (موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال) .

والديوان كلمة فارسية معربة ، أصلها « ديوانه » وتعني السجل أو الدفتر ، ثم أطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه السجل أو الدفتر .

ويقال أن الكلمة عربية ومعناها الأصل الذي يرجع إليه ويعمل بما فيه . وقد فهم هذا المعنى من قول ابن عباس ، رضي الله عنه ، « إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب »(٢) .

● ديوان الجنــــد :

غير أن الديوان كأساس للتنظيم الإداري الإسلامي مأخوذ عن الفرس أو عن البيزنطيين . ولما استقر رأي عمر بن الخطاب على تدوين الديوان طلب من بعض شباب قريش وكتابها أن يكتبوا الناس على منازلهم ، فكتبوهم على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وما بعدها الأقرب فالأقرب ، وحسب السابقة في الإسلام وحسن الأثر في الدين . وعند انقراض أهل السابقة روعي في التفضيل التقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد(٣) .

---

١ — أبو زيد شلبي : المرجع السابق ، ص ١٠٧-١٠٩ .
— فرج محمد الهوني : المرجع السابق ، ص ٨٢-٨٥ .
٢ — القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٨٩-٩٠ .
٣ — الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٢٠٢ .

ووفقاً لهذه القاعدة فرض عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، العطاء للمسلمين وللمسلمات طبقات طبقات . وكان أفراد كل طبقة يتساوون في العطاء لا فرق بين عربي وعجمي ، سيد ومولى . كما فرض عمر بن الخطاب العطاء لكل مولود في الإسلام ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقد كتب إلى أمراء الاجناد بأن من اعتق مواليه العجم والروم فأسلموا ألحقوا بمواليهم ولهم ما لهم وعليهم ما عليهم وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم يجعلوهم أسوتهم في العطاء . وإلى جانب العطاء فرض الأرزاق ، فقد فرض لكل نفس مسلمة في كل شهر مدّى حنطة وقسطي خل(١) .

وقد اختلف المؤرخون حول التاريخ الذي وضع فيه الديوان فيذكر الطبري(٢) أنه وضع في السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، بينما يرى ابن الأثير ومن شايعه من المؤرخين(٣) ، أنه وضع في السنة العشرين من الهجرة . ولا شك أن التاريخ الأول هو التاريخ الصحيح لوضع الديوان ، ذلك أن الظروف الجديدة التي نتجت عن فتح أراضي سواد العراق ، وهي أراضي زراعية واسعة ، هي التي أملت على عمر بن الخطاب إنشاء الديوان وتقرير الأعطيات بدلا من توزيع هذه الأراضي على الذين فتحوها باعتبارها غنيمة لهم حاربوا عليها . فعندما أتم سعد بن أبي وقاص فتح أراضي السواد من العراق كتب إلى عمر يستشيره في توزيع الأرض والغنائم على الذين قاتلوا عليها من جند المسلمين . فرد عليه عمر بعد أن شاور أصحاب رسول ، صلى الله عليه وسلم ، بما استقر عليه الأمر في هذا الصدد ، فكتب إليه (أما بعد ، فقد

---

١ ـ عن نظام توزيع الاعطيات والارزاق كما فرضها عمر بن الخطاب
ـ انظر فرج الهونى : المرجع السابق ، ص ٨٨ـ٩٦ .
٢ ـ الطبرى : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٢٣ .
٣ ـ ابن الاثر : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .
ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢١٧ .
ـ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٤ .

بلغني كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن تعداهم شيء) (١) .

وبذلك تركت الأراضي غير مقسمة في يد أهلها وعلى أن يوضع الخراج عليها والجزية على أصحابها طالما بقوا على دينهم ولم يعتنقوا الإسلام . وبذلك أدى عدم تقسيم الأرض على الذين قاتلوا عليها من جند المسلمين وجباية الخراج والجزية من أهلها إلى وجود مورد مالي ثابت للدولة الإسلامية يضمن العيش الكريم لكل مسلم ، وكل مسلمة ، من كان على قيد الحياة وقتذاك ومن سيأتون من بعدهم ، كما يصرف منه على الجهاد في سبيل الله .

وكان الديوان يسجل به أسماء كل من فرض له العطاء ، وعلى رأسهم أصحاب السابقة في الإسلام والجهاد ، والجند الذين اشتركوا في فتح الأمصار ، وكانوا يمثلون الكثرة الغالبة ممن فرض له العطاء ، ومن هنا جاءت تسميته بديوان العطاء وبديوان الجند(٢) .

ولكي يتم إحصاء الجند في الأمصار الإسلامية وتقرير أعطياتهم أنشأ عمر بن الخطاب ديواناً للجند في الكوفة ، وفي البصرة ، وفي الشام ، وكان التدوين في هذه الدواوين باللغة العربية(٣) . وعلى الرغم من أن المصادر

---

١ ـ أبو يوسف : الخراج ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ .
ـ يحيى بن آدم : الخراج ، ص ٢٧ .
ـ البلاذرى : فتوح البلدان ج ٢ ، ص ٢٧٤ .
٢ ـ محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، الطبعة الثالثة ، ص ١٥٦ .
٣ ـ الجهشيارى : المصدر السابق ص ٣٨ .
ـ الصولى : أدب الكتّاب ، ص ١٩٢ .

التاريخية لا تتحدث عن إنشاء مثل هذا الديوان في مصر إلا أنه من المرجح أنه أُنشيء أيضاً هنالك للقيام بهذا الغرض . وهذه الدواوين غير دواوين الخراج التي كانت في هذه الأمصار قبل فتحها ، والتي ظلت فيها بعد فتحها يدون فيها باللغة الفارسية في ديوان العراق ، وباللغة اليونانية في ديوان الشام ، وباللغة القبطية في ديوان مصر إلى أن تم تعريب هذه الدواوين في خلافتي عبد الملك بن مروان وابنه الوليد(١) .

وقد عين عمر بن الخطاب كاتباً في كل مصر من الأمصار يكتب في ديوان الجندية ، فممن وصلتنا أسماؤهم أبو جبيرة بن الضحاك الأنصاري على ديوان جند الكوفة ، وعبد الله بن خلف الخزاعي على ديوان جند البصرة(٢) ، وكانت مهمة كاتب ديوان الجند ضبط حساب الديوان من أعطيات الجند ، كما كان يكتب لديوان الجند وبيت المال في المدينة المنورة ، ويكتب المراسلات إلى الخليفة . وفي خلافتي عثمان وعلي ، رضي الله عنهما ، ربما شاركه في ذلك كاتب ثان ، فكان الأول يكتب لديوان الجند والمراسلات والثاني يكتب لبيت المال(٣)

● **ديوان بيت المال :**

هذا ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عمر بن الخطاب هو أول من اتخذ بيت المال(٤) وأنه لم يكن للنبي ولا لأبي بكر بيت مال حسبما ذكرناه من قبل(٥) . فموارد بيت المال في عهد النبي وفي عهد أبي بكر كانت تعتمد

---

١ ـ فرج الهونى : المرجع السابق ص ٢٠٢،٢٠٣،٢٠٥،٢١٢ ·
تم تعريب ديوان العراق فى سنة ٧٨هـ ، وديوان الشام فى سنة ٨١هـ ، وديوان مصر فى سنة ٨٧هـ ·

٢ ـ فرج الهونى : المرجع السابق ، ص ٩٧ ·

٣ ـ أبو زيد شلبى : المرجع السابق ، ص ١٠٤ ·

٤ ـ ابن الجوزى : سيرة عمر بن الخطاب ، ص ٨٧ ·

٥ ـ انظر قبـل ·

أساساً على الزكاة والجزية والفيء وكانت تصرف كلها في حينها . أما في خلافة عمر بن الخطاب فقد توسعت الفتوحات الإسلامية وتدفقت الأموال على دار الخلافة ، وهي أموال الزكاة والفيء والغنائم والجزية والخراج والعشور . وكانت الأموال تجبى من الأمصار ثم تحمل إلى المدينة وتوضع في بيت المال بعد صرف الأعطيات وما يجب صرفه بعد تكفية الجيوش وما يجب صرفه من بيت المال(١) .

● **ديوان الرسـائل :**

هذا وقد سبقت الإشارة إلى الرأي الذي يقول بأن ديوان الرسائل أنشيء في عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، استناداً إلى اتخاذ الرسول عدداً كبيراً من الكتاب الذين كتبوا له ما كان ينزل به عليه الوحي من آيات القرآن الكريم ، والكتب التي أرسلها الرسول إلى ملوك وأمراء البلاد المجاورة ، والمواثيق والمعاهدات التي عقدها الرسول .

غير أن أحداث الفتوح الإسلامية استوجبت كثرة تبادل الرسائل والكتب بين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وقواد الجيوش الإسلامية والولاة والعمال الذين عينهم لحكم البلاد المفتوحة لأخذ رأيه في كل ما يعرض لهم من أمور ، كما اقتضى الأمر وضع نظام لحفظ هذه الرسائل والكتب والرد عليها .

وهذه الضرورة الثانية هي التي اقتضت اتخاذ الهجرة النبوية للمدينة بداية للتأريخ الإسلامي . وما فعله عمر بن الخطاب في هذا الصدد لا يعدو أن يكون تسجيلا رسمياً لما كان يجرى عليه العرف في الدولة الإسلا مية حتى ذلك الوقت . فقد كان المسلمون يؤرخون أحداثهم منسوبة إلى بعدها الزمني من الهجرة النبوية إلى المدينة . فكانوا يقولون حدث كذا في العام الأول بعد لهجرة ،

١ ــ القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ .

وفي العام الثاني من الهجرة وهكذا ، وهذا العرف في تأريخ الأحداث هو الذي كان متبعاً في الجاهلية ، إذ كان العرب يؤرخون أحداثهم بعام الفيل ، وهو حدث كانت له آثار كبيرة في حياتهم . وبذلك كان عمر بن الخطاب أول من أرخ الكتب إلى القواد والولاة والعمال ، وكان ذلك في السنة السادسة عشر من الهجرة . وكانت الكتب تختم بالطين ، وهو نوع خاص من الطين يذاب بالماء ويسمى (المذاق) تختم به الكتب(١) .

تطور نظم الحكم في العصر الأموى
(ديوان الرسائل ـ ديوان الخاتم ـ ديوان البريد)

وهكذا كانت الصورة المبسطة للحكومة الإسلامية ، في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي عصر الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، وأول ما يسترعي انتباهنا في هذه الصورة اعتماد الرسول صلى الله عليه وسلم على عدد كبير من الكتاب في كتابة الكتب والعهود والمواثيق والمعاملات والعقود وأموال الصدقات والغنائم ، أي كل ما يتعلق بأمور الحكم وشئون الناس . وهذا هو الذي دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن ديوان الرسائل أو ديوان الإنشاء كان أول ديوان وضع في الدولة الإسلامية . وليس ثمة شك أن هذا الديوان كان في عهد الرسول مجرد نواة أخذت تكبر وتنمو في عهد عمر بن الخطاب بعد أن كثر تبادل الكتب والمراسلات بينه وبين قواد الجيوش الإسلامية والولاة والعمال الذين عينهم لحكم الأمصار ، فقد دعت هذه الحاجة إلى تأريخ كتابة الرسائل وإلى حفظها .

ومن خلال هذه الصورة المبسطة للحكومة الإسلامية في عصر الرسول صلى

---

١ ـ فرج الهونى : المرجع السابق ص ٢٠١ .
ـ يونس عبد الحميد السامرائى : المرجع السابق ص ٤٤٩ـ٤٥٠
ـ عن ختم الكتاب ـ انظر ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٩٥ .

الله عليه وسلم وفي عصر الخلفاء الراشدين يتضح لنا أيضاً أنه لم تكن هناك حدود فاصلة تحدد نوع الكتابة التي كان يتولاها كل كاتب من هؤلاء الكتّاب الذين كانوا يعملون في الدواوين المركزية في المدينة ، وهي : ديوان الرسائل ، وديوان الجند ، وديوان بيت المال ، أو الذين كانوا يعملون في دواوين الأمصار . فقد كان الكتّاب يجمعون بين كتابة أعطيات الجند وأسمائهم ، والكتابة لبيت المال ، وكتابة المراسلات .

وفي العصر الأموي بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها ، وأخذت الخلافة طابع الملك ، كما صاحب ذلك ازدياد العرب معرفة بأحوال الأمصار المفتوحة وبمتطلبات التطور في نظم الحكم . ومن ثم فإن الجهاز الإداري للدولة الإسلامية في العصر الأموي أخذ يتطور وينمو تبعاً لهذه المتغيرات والمتطلبات ، وقد تمثل ذلك في تطوير نظم الحكم والدواوين التي وضعت في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عصر الخلفاء الراشدين ، وفي إنشاء دواوين جديدة دعت الحاجة إليها ، فضلا عن تعريب الدواوين ليتمكن العرب من الإشراف التام عليها ومن تثبيت سلطان الدولة الإسلامية .

وتمشياً مع هذه الأوضاع التي أدت إلى تطوير ونمو الجهاز الإداري للدولة الإسلامية وإلى تعدد مصالح الدولة وتزايد أغراضها فقد ظهرت الحاجة إلى تحديد اختصاصات الكتاب ومن ثم تذكر المصادر أن الكتاب في العصر الأموي صاروا خمسة(١) ، وهم :

١ — كاتب الرسائل ، يخاطب الملوك والأمراء والعمال وغيرهم .

٢ — كاتب الخراج ، يدون حساب الخراج داخله وخارجه .

٣ — كاتب الجند ، يقيد أسماء الأجناد وطبقاتهم ، وأعطياتهم ، ونفقات الأسلحة وغير ذلك .

---

١ — أبو زيد شلبي : المرجع السابق ، ص ١٠٤-١٠٥ .

٤ ــ كاتب الشرطة يكتب التقارير عما يقع من أحوال القواد(١) والديات وغيرها .

٥ ــ كاتب القاضي ، يكتب الشروط والأحكام .

وكان كاتب الرسائل أهم هؤلاء الكتاب في المرتبة وأقدمهم ، وكان يسمى كاتب السرّ لأنه يد الخليفة ومستودع سره . ولخطورة هذا المنصب كان الخلفاء لا يولونه إلا أقرباءهم وخاصتهم(٢) .

وقد استقر الأمر في العصر الأموي على ستة دواوين رئيسية مقرها دمشق عاصمة الخلافة وهي : ديوان الخاتم ، وديوان البريد ، وديوان الرسائل ،وديوان الجند ، وديوان الخراج ، وديوان بيت المال(٣) . فديوان

---

١ ــ جمع قود ، وهو القصاص .

٢ ــ آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ص ١٥٩ .

٣ ــ يذكر أبو زيد شلبى (المرجع السابق ص ١١٠ــ١١١) أن الدواوين الرئيسية فى عصر الامويين خمسة وهى ديوان الخاتم وديوان البريد ، وديوان الرسائل ، وديوان الجند ، وديوان الخراج . بينما يذكر فرج الهونى (المرجع ص ١٩٦ــ٢٠٤) أن دواوين العصر الاموى سبعة وهى : ديوان الخاتم ، وديوان البريد ، وديوان الرسائل ، وديوان الجند ، وديوان الخراج ، وبيت المال ، وديوان الزمام ، الا انه يذكر ص ٢٠٣ أن زيادا والى العراق هو الذى استحدث ديوان الزمام ، ويبدو أن هذا الديوان كان موجودا هناك قبل الاسلام ضمن الدواوين الفارسية فأعاد زياد انشاءه . وفى الديوان كان يثبت ما تمت جبايته من الخراج ، وما أنفق فى وجوه النفقات الاخرى ، كما كانت تحفظ فيه نسخ الوثائق الرسمية المهمة بعد توقيعها من قبل صاحب التوقيع بعد التأكد من صحتها ، وبعد مقابلتها بالاصل وختمها . وهذه المهمة الثانية لديوان الزمام هى التى من أجلها استحدث معاوية فى عاصمة الخلافة ديوان الخاتم (انظر فيما بعد) .

الجند(١) ، وديوان الرسائل ، وديوان بيت المال(٢) يرجع إنشاؤها إلى عمر بن الخطاب ، وقد تطورت نظم العمل بها بما يتمشى مع الأوضاع الجديدة للدولة الإسلاميةفي عهد الأمويين . وأما ديوان الخاتم ، وديوان البريد ، وديوان الخراج(٣) فهي دواوين مستحدثة دعت هذه الأوضاع الجديدة للدولة الأسلامية إلى إنشائها .

ويهمنا في هذا المجال التعريف بديوان الخاتم ، وديوان البريد ، وهما من الدواوين المستحدثة ، وكذلك التعريف بما حدث من تطوير في ديوان الرسائل ، ذلك أن الرسائل لم يقتصر أمرها على مجرد كتابتها على يد كاتب الرسائل ومن كان يعاونه من الكتاب الذين يعملون معه في ديوان الرسائل ، وإنما شارك في ختمها بخاتم الخليفة وفي توثيقها ثم إرسالها إلى أصحابها ديوان

---

١ ـ تفرع ديوان الجند الى قسمين : قسم خاص بالاعطيات ، وقسم خاص بالجند ، لان الجند قد زادت أعدادهم زيادة كبيرة فى العصر الاموى وأصبحوا جندا نظاميا (انظر فرج الهونى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣ـ٢٠٤) ٠

٢ ـ ديوان بيت المال هو الديوان القديم الذى أنشاه عمر بن الخطاب فى المدينة المنورة ، ثم نقل الى دمشق مع قيام خلافة معاوية ابن أبى سفيان ٠ وقد انشأ الامويون على غرار هذا الديوان المركزى لبيت المال فى دمشق دواوين لبيت المال فى عواصم الامصار الاسلامية (انظر فرج الهونى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤) ٠

٣ ـ عندما فتح المسلمون الامصار التى كانت خاضعة للفرس والروم وجدوا فى كل منها ديوانا للخراج ، وكانت هذه الدواوين تكتب فى العراق وفارس باللغة الفارسية ، وفى الشام باللغة اليونانية ، وفى مصر باللغة القبطية ٠ وقد أبقى المسلمون على هذه الدواوين ، كما أبقوا على من كان يعمل بها من أهالى البلاد الاصليين ٠ وفى العصر الاموى استحدث الامويون فى دمشق ديوانا مركزيا للخراج كانت ترد اليه واردات الخراج من دواوين الخراج فى الامصار لتسجل فيه (انظر فرج الهونى : المرجع السابق ص ٢٠٢ـ٢٠٣) ٠

الخاتم وديوان البريد . وفضلا عن ذلك ، فإننا سنرى فيما بعد – في العصر الإسلامي المتأخر – أن اختصاصات ديوان الخاتم وديوان البريد تركزت في ديوان الإنشاء وآلت إلى صاحب هذا الديوان .

● **ديوان الرســائل :**

فديوان الرسائل في العصر الأموي أصبح يحرر رسائل الخليفة ومراسلاته في الداخل ومكاتباته مع العمال والأقاليم . وقد اختار معاوية على هذا الديوان كاتباً من أشهر كتّابه وهو عبيد الله بن أوس الغساني ، وكان من أقربائه ومن عظماء قبيلته . وكان لصاحب هذا الديوان الاشراف على الولايات وعلى الرسائل من الولاة . وكان في كل ولاية من الولايات ديوان للرسائل يشرف عليه الوالي أو من ينوب عنه ، فقد كان في البصرة في عهد زياد ديوان للرسائل يشرف عليه عبد الله بن أبي بكرة ، وجبير بن حية . وكان زياد يراقب كتاب ديوان الرسائل مراقبة شديدة ويختارهم من الذين يجيدون اللغة العربية إجادة تامة .

ثم تعددت اختصاصات ديوان الرسائل وكثر عدد من يعملون فيه ، فأصبح هناك كتّاب رئيسيون يقومون بالإنشاء ، وآخرون يساعدونهم في التلخيص والتبييض ، وأصبح لهذا الديوان محفوظات خاصة يتولى الإشراف عليها الخازن . فكانت أصول المراسلات ونسخها تنظم في سجلات أو مغلفات خاصة يقال لها أضابير ، توضع عليها بطاقات تدل على محتوياتها ليسهل استخراجها والرجوع إليها ، وعادة كانت تلف مكاتبات كل شهر في اضبارة تحمل اسم الشهر . وكانت الرسائل الصادرة عن هذا الديوان تختم بخاتم الخليفة ، وقد اتخذ معاوية خاتماً نقش عليه عبارة « لكل عمل ثواب » ، ثم اتخذ من بعده خلفاء بني أمية الخواتم التي تحمل نقوشاً مختلفة(1) .

---

1 – فرج الهوني : المرجع السابق ، ص ٢٠١–٢٠٢ .

وكان الخليفة هو الذي يوقع على القصص ويحدثها بنفسه ، والكاتب يكتب ما يبرز إليه من توقيعه ويصرفه بقلمه على حكمه . وكان ممن اشتهر من كتابهم بالبلاغة وقوة الملكة في الكتابة حتى سار ذكره في الآفاق ، وصار يضرب به المثل على مر الأزمان عبد الحميد بن يحي كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين (١) .

● ديوان الخـــاتم :

استحدثه معاوية بن أبي سفيان ، وكانت تثبت فيه أوامر الخليفة ثم تختم وتحزم بخيط أو يختم بالشمع ، أي أنه كان عبارة عن إدارة للسجلات سميت باسم ديوان الخاتم ، إذ كان يسجل كل أمر يصدره الخليفة ثم يختم الأصل ويرسل إلى الجهة المرسل إليها . وكانت الأوامر قبل إنشاء هذا الديوان ترسل غير مختومة وتسلم لأصحابها ، وحتى لا تتعرض توقيعات الخليفة للتزوير والتعديل رأى معاوية بن أبي سفيان اتخاذ هذا الديوان ، وأسند مهمةالإشراف عليه إلى عبد الله بن محصن الحميري ، وهو من ثقاة معاوية ، وكان يأتمنه على سره ، وكان عبد الله هذا أحد قضاته . وهذا يبين لنا أهمية هذا الديوان ، إذ كان يحتوي على جميع مكاتبات الخليفة وأوامره .

وأصبح هذا الديوان يضم عدداً من الكتاب القائمين على إنفاذ كتب الخليفة وأوامره والختم عليها ، أما بالعلامة أو بالحزم . وكان الحزم يتم عن طريق لصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب ، وقد يجعل على مكان الالصاق علامة يؤمن معها من فتحه ، والاطلاع على ما فيه ، وهي لا تخرج عن ختم المكان الملصوق بخاتم منقوش قد غمس في مذاق من الطين ذي لون أحمر معد لهذا الغرض .

---

١ ــ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩٣ .

وقد ذكر أحد المؤرخين أن كتب الخليفة تمر بهذا الديوان وتثبت فيه لأن لخاتم الخليفة من الموقع ما ليس لغيره ، وكان ذلك متبعاً عند الفرس فإذا أمر الملك بأمر رفعه صاحب التوقيع بين يديه ، وأثبته في تذكرة عنده ثم يختم ويرفع إلى صاحب العمل ، أي أنه يختم في حضرة الملك وبحضرة أوثق الناس إليه . وأول من استأنف العمل بهذا الديوان وبهذه الطريقة زياد عندما كان والياً على العراق ، أما الخاتم نفسه فقد كان معروفاً منذ زمن الرسول ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وكان زياد قد أقام فترة طويلة على ولاية العراق امتدت إلى اثنتي عشرة سنة فاكتسب خبرة واسعة واطلع على نظم الفرس مما رفعه إلى تطوير نظام الدواوين ، وخاصة ديوان الخاتم فأمر الكتّاب بنسخ المكاتبات بعد ختمها ، وأقام على هذا الديوان موظفين من العرب والعجم(١) .

● ديوان البـريد :

والبريد معناه أن يجعل خيل مضمرات في عدة محطات ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى محطة منها ، وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً ، ويفعل ذلك في كل محطة حتى يصل بسرعة . ومعناه اللغوي ثلاثة فراسخ(٢) . أي المسافة بين المحطة والمحطة ، وقد وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة .

---

١ ـ فرج الهوني : المرجع السابق ، ص ١٩٧ـ١٩٨ .
ـ كان ديوان الخاتم من أكبر الدواوين منذ أن أنشأه معاوية الى أواسط دولة بنى العباس فاسقط لتحول الاعمال الى الوزراء والسلاطين (انظر آدم ميتز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٥٣ـ١٥٤ أبو زيد شلبى : تاريخ الحضـارة الاسـلامية ، ص ١١٢) .

٢ ـ الفرسخ ـ ٣ أميـال = ٥٥٥٤ مترا = ٢٠٠٠ ذراعـا مرسلة = ٩٠٠٠ ذراعا شامية (انظر أحمد عادل كمـال : الطريق الى المدائن ، ص ١٤٤) .

وقد أخذ معاوية بن أبي سفيان نظام البريد عن الرومان على النمط الذي كان معروفاً من قبل في بلاد الشام وأصبح ديوان البريد في عهده إدارة مستقلة يتولاها شخص يعرف بصاحب البريد ، وأصبحت وظيفة هذا الشخص من أهم الوظائف الإدارية في العصر الأموي ، إذ كان يتمتع بنفوذ كبير . فقد كان صاحب البريد يتولى تنفيذ ما يصدر عن الخليفة إلى عمال الأقاليم ويتلقى ما يرد منهم إلى دار الخلافة ، ويعرض خلاصته على الخليفة ، ثم يراقب العمال والموظفين التابعين لديوان البريد في الولايات المختلفة ، كما كان يتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة .

لهذا كان الخلفاء يتخيرون صاحب البريد من ذوي الأمانة والإخلاص حتّى يتحرى الصدق في أخباره لأن مهمته لم تكن قاصرة على تصدير الرسائل إلى الجهات المرسلة إليها وتسلم الوارد منها ، وإنما كانت مهمته أيضاً الإشراف على أعمال الولاة وغيرهم من الموظفين الكبار في الولايات ، إذ كان يعين صاحب البريد عمالا له في الأمصار المختلفة يبعثون إليه بالأخبار ، أي أن صاحب البريد أصبح عيناً على العمال والولاة ، كما لم يكن بينه وبين الخلفاء وسيط .

وكانت هناك طرق بريد تربط العاصمة دمشق بعواصم الأمصار الإسلامية . ومن أهم هذه الطرق التي أنشئت في خلافة معاوية الطريق الذي يربط الكوفة بدمشق ، والطريق الذي يربط مكة والمدينة بدمشق . وقد كانت عناية الأمويين بهذا الطريق الثاني فائقة وكانوا يستعملونه في مختلف الأغراض ، فقد ذكر عن يزيد بن عبد الملك أنه طلب من والى مكة أن يبعث إليه شاعراً يدعى ابن أبي لهب وأن يعطيه ألف دينار لنفقة طريقه ، وأن يحمله على ما شاء من دواب البريد .

وكان هناك طريق آخر يربط الشام بخراسان ، وقد اعتنى به عمر ابن عبد العزيز عناية كبيرة . وقد أنشأ عمر بن عبد العزيز خانات البريد على جوانب الطرق الرئيسية وخاصة طريق خراسان ليبيت فيها الناس ، وأمكنة تقيم فيها الدواب من خيل وجمال ووفر بها الأحواض للشرب .

وقد استعمل البريد في نقل الجند على نطاق واسع التماساً للسرعة ، فقد كانت تصل عن طريقه النجدات العسكرية . وقد استخدم لهذا الغرض عندما طلب الحجاج بن يوسف الثقفي النجدات ضد ثورة شبيب الخارجي وبعث إليه الخليفة عبد الملك بن مروان النجدات من الشام عن طريق البريد .

وكذلك كان البريد يحمل العمال إلى ولاياتهم عند التولية ، فقد ذكر عن الخليفة هشام بن عبد الملك أنه عندما عين الجنيد عاملا على خراسان حمله على ثمانية من دواب البريد . بل واستخدم البريد في أغراض أخرى كثيرة منها مثلا الأغراض الاقتصادية ، فقد نقل على خيله وإبله ، في خلافة الوليد ابن عبد الملك ، الفسيفساء إلى دمشق من القسطنطينية ليصفح به حيطان المسجد الأموي بدمشق ، والمسجد النبوي بالمدينة والمسجد الأقصى بالقدس . وقد استعمل قرة بن شريك والي مصر (٩٠ — ٩٦ هـ) عمال البريد في جمع — الأخبار — عن حالة الخراج وجبايته ، وحالة العمال في الأقاليم المصرية ، وكان البريد يكتب له عن كل كبيرة وصغيرة في تلك الأقاليم ، وكان يعتمد على تلك الأخبار في تحديد مقادير الخراج وطريقة الجباية(١) .

تطور نظم الحكم فى العصر العباسى
(الوزارة وديوان الانشاء ـ ديوان التوقيع ـ ديوان الفض)

وفي العصر العباسي الأول استدعى تطور أنواع العمران البشري واعتماد العباسيين على الفرس في إدارة شئون الدولة إلى اقتباس كثير من أنظمة الحكم

١ ـ فرج الهونى : المرجع السابق ص ١٩٨ـ٢٠١ .

عن الفرس وإلى اتساع نطاق الجهاز الإداري للحكومة الإسلامية ، فقد استحدثت الوزارة(١) ، كما استحدثت دواوين جديدة وطورت نظم العمل فيما كان موجوداً من دواوين .

فالرسول صلوات الله عليه وسلامه ، كان يشاور أصحابه ويفاوضهم فيما كان يعرض له من أمور الدنيا العامة والخاصة ، غير أنه كان يخص أبا بكر ، رضي الله عنه ، بخصوصيات أخرى حتّى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها عند الفرس والروم والأحباش يسمون أبا بكر وزيره . وكذلك كان عمر مع أبي بكر رضي الله عنهما ، وعثمان وعلي مع عمر رضي الله عنهم(٢) .

وفي العصر الأموي لم تكن الوزارة (مقننة القواعد ، ولا مقررة القوانين) ، إذ كان ذوو الآراء من مستشاري الخليفة يقومون مقام الوزراء ، وكان الواحد منهم يسمى كاتباً أو مشيراً(٣) . وكان كاتب الرسائل على رأس الكتاب في العصر الأموي كما سبق أن ذكرنا ، ومن ثم كان كاتب الرسائل بمثابة الوزير للخليفة الأموي(٤) .

هذا ويذكر المسعودي أن خلفاء بني أمية كانوا ينكرون أن يخاطب كاتب لها بالوزارة لأن الخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة(٥) . ويقال أن مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية اتخذ له وزيراً(٦) .

---

١ ـ عن الوزارة : انظر توفيق اليوزبكى : الوزارة نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية .
٢ ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٨٧ .
٣ ـ ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٨٠ .
٤ ـ انظر قبل .
٥ ـ المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٩٤ .
٦ ـ الجهشيارى : الكتاب والوزراء ، ص ٩٦ .

إلا أنه من المتفق عليه بين كافة المؤرخين أن الوزارة لم تصبح نظاماً ثبتت قواعده ، وتقررت قوانينه إلا مع قيام دولة بني العباس ، فأصبح الوزير يسمى وزيراً ، وكان من قبل يسمى كاتباً أو مشيراً .

فالوزارة كنظام إداري أخذه العباسيون مع قيام دولتهم عن الفرس ، وإن كانت الكلمة عربية الأصل ومضمونها معروفاً من قبل عند العرب — . فكلمة « الوزارة » عربية مشتقة أما من الوزر — بمعنى الملجأ والمعتصم ، أو من الوزر وهي الثقل ، أو الأزر وهو الظهر . وسواء أكانت دالة على الملجأ أو الثقل أو المعاونة فالوزير هو الذي يلجأ الخليفة إلى رأيه وتدبيره . أو هو الذي يحمل عن الخليفة أثقاله ، أو هو الذي يقوى به الخليفة كقوة البدن بالظهر . وهو ما عبر عنه القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام بقوله تعالى :

« واجعلْ لي وَزيراً منْ أهلْي هارونَ أخي اشدُدْ به أزرِي وأشركه في أمْري »(١) .

وفي أوائل الدولة العباسية أصبح الوزير على رأس الجهاز الحكومي ، ومع تقدم أحوال الدولة ومتطلبات الحكم أصبح — كما يقول ابن خلدون — جامعاً لخطتي السيف والقلم . ففي هذا الصدد يقول (فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفع عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت له الوجوه وخضعت له الرقاب وجعل له النظر في

---

١ — أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ص ٩٠—٩١ .

ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه . ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذباع والشياع ودفع إليه ، فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعي جعفر بن يحي بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك) (١) .

هذا ويذكر الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية نوعين من الوزارة ، الأولى وزارة التنفيذ والثانية وزارة التفويض ، فوزارة التنفيذ تعني أن الوزير ينفذ أوامر الخليفة ، ووزارة التفويض تعني أن الخليفة يفوض إلى الوزير كافة شئون الدولة . وقد وضع الفقهاء شروطاً لتعيين كل منهما ، فوزير التنفيذ لا يشترط لتعيينه تقليداً أو عقداً أو صيغة معينة وإنما يكفي فيها مجرد إذن الخليفة . وأما وزير التفويض فلا تنعقد ولايته إلا بعقد الخليفة يفوض فيه إليه تدبير الأمور برأيه وإمضائها على اجتهاده دون الرجوع إليه ما عدا ثلاثة أمور هي من حق الإمام ، وهي أن يعهد بولاية العهد إلى من يرى ، وأن يستعفي الأمة من الإمامة ، وإلا يعزل من قلده الإمام . ومن شروطها أيضاً إلا يتولاها غير مسلم .

ويجوز للإمام أن يقلد وزيري تنفيذ على اجتماع وانفراد ولا يجوز له أن يقلد وزيري تفويض على الاجتماع لعموم ولايتهما لأنهما ربما تعارضا في الحل والعقد . كما يجوز له أن يقلد وزير تفويض وزير تنفيذ في وقت

---

١ ــ المقدمة : ص ١٨٨ .

واحد ، فيكون وزير التفويض مطلق التصرف ، ووزير التنفيذ مقصوراً على تنفيذ ما وردت به أوامر الخليفة .

ومن أشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الأول يعقوب بن داود في خلافة المهدي ، ويحي بن خالد بن برمك في خلافة الرشيد ، والفضل بن سهل في خلافة المأمون ، وفي العصر العباسي الثاني نظام الملك مع السلطان السلجوقي ملكشاه(١) .

وممن اشتهر من وزراء العصر العباسي الأول بالبلاغة أبو سلمة الخلال الذي لقب بوزير آل محمد ثم نكب على يد أبي العباس السفاح ، والربيع ابن يونس في عهد المنصور ، ويعقوب بن داود في عهد المهدي ، ويحي ابن خالد بن برمك وابنه جعفر في عهد الرشيد ، وكذلك الفضل بن الربيع ، والفضل والحسن بن سهل ، وأحمد بن يوسف في عهد المأمون ، ومحمد ابن عبد الملك الزيات في عهد المعتصم وابنه الواثق . ومن أشهرهم في العصر العباسي الثاني أبو الفضل محمد بن العميد ، والصاحب إسماعيل بن عباد(٢) .

وكان الوزير يجلس في مجلس الخليفة موالياً له بوجهه ، وهي عادة المرؤوس بالنسبة لرئيسه ، وإذا أراد الوزير أن يكتب شيئاً في حضرة الخليفة فقد كان الرسم أن تحضر له دواة لطيفة بسلسلة فيمسكها بيده اليسرى ويكتب بيده اليمنى ثم رسم بعد ذلك بأن يقف بعض الخدم فيمسك الدواة إلى أن يفرغ الوزير من الكتابة(٣) .

---

١ ـ الاحكام السلطانية ، ص ١٨ـ٢١ ·

٢ ـ القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣ ·
ـ أبو زيد شلبى : المرجع السابق ، ص ١٠٥ـ١٠٦ ·

٣ ـ آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ص ١٧٢ ·

كما كان من رسم الوزير أن يغدو إليه الكتّاب فيوافقهم على الأعمال ويسلم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ، ويوصيه بما يريد وصاته به . وفي مثل هذا المجلس كان الكتّاب يجلسون أمام الوزير كل في مكانه ومعه دواته ، وكان رئيس هؤلاء الكتّاب يجلس متقدماً عليهم(١) .

ولما ازداد نفوذ القواد الأتراك مع بداية العصر العباسي الثاني وأصبحوا يتحكمون في تولية الخلفاء وعزلهم تسلطوا على أُمور الدولة وانحط شأن الوزارة والوزراء . فبعد أن كان للوزير دار خاصته بقصر الخلافة يقيم فيها خواصه وحاشيته(٢) أصبح منذ عام ٣١٢ هـ يجلس في دار الحاجب ، كما نزعت منه معظم اختصاصاته وأجرى له رزق ثابت وأخذت منه الضياع التي كانت اقطاعاً له .

وفي عهد نفوذ الأتراك أصبحت الوزارة وراثية تتوارثها أُسر معينة . ومن هذه الأسر بنوخاقان ، وبنو الفرات ، وبنو وهب . ومن أشهر وزراء عصر نفوذ الأتراك أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات ، وعلي بن عيسى اللذين وزرا للخليفة المقتدر .

وبسبب ازدياد نفوذ القواد الأتراك في عهد الخليفة الراضي (٣٢٢ – ٣٢٩ هـ) عجز الوزراء عن تدبير أُمور الدولة وازدادت حالة الدولة العباسية سوءاً ورأى الخليفة الراضي أن يفوض كافة شؤون الدولة إلى محمد بن رائق ، وكان أمير البصرة وواسط ، ولقبه «أمير الأمراء» . كما أمر أن يخطب له على جميع المنابر ، وبذلك علت مرتبة أمير الأمراء على مرتبة الوزير . كما بطل أمر الوزارة فلم يعد الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين والأعمال ، ولم يبق له غير اسم الوزارة فقط . بل أصبح أمير الأمراء يتدخل في تعيين

١ ـ نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٧٠ـ١٧١ .
٢ ـ نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٧٢ .

الوزراء وعزلهم . غير أن نظام إمرة الأمراء الذي استحدثه الخليفة الراضي لم يحقق الفائدة المرجوة منه ، فقد ازدادت أحوال الدولة العباسية سوءاً بسبب تنافس القواد الأتراك على الاستئثار بهذا المنصب . وتعتبر الفترة الممتدة من سنة ٣٢٢ حتى سنة ٣٣٤ هـ التي شهدت نظام إمرة الأمراء من أسوأ الفترات في تاريخ الدولة العباسية وأكثرها اضطراباً وفساداً(١) .

وفي سنة ٣٣٤ هـ دخل بنو بويه بغداد واستأثروا بالسلطة دون الخلفاء وأصبحوا هم الذين يعينون الوزراء ، كما انحط شأن الوزير فأصبح بمثابة كاتب للأمير البويهي(٢) . وقد أحدث الأمير البويهي عضد الدولة في نظام الوزارة شيئين : أولهما أن اتخذ له وزيرين ، هما ابن منصور بن نصر هارون الذي جعل مقره بلاد فارس ليدبر أمورها ، والمطهر بن عبد الله الذي جعل مقره بغداد ليدبر أمور العراق ، وكان كل منهما مستقلا عن الآخر في عمله . وأما ثاني هذين الشيئين فإن ابن منصور كان نصرانياً(٣) . وفي مصر — في نفس الفترة تقريباً — قلد الخليفة الفاطمي العزيز بالله الوزارة لعيسى بن نسطورس ، وقد تولاها فيما بعد لخلفاء الفاطميين كثيرون من الوزراء النصارى(٤) . غير أنه في بعض الأحيان كان أمراء البويهيين يكتفون بوزير واحد .

---

١ - عن الوزارة فى عصر نفوذ الاتراك وعن نظام أمرة الامراء انظر محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٣٧-٤٦ .

٢ - آدم متز : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

٣ - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٦١ .

٤ - سلام شافعى محمود سلام : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الاول ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب - جامعة القاهرة ١٩٧٦م ، ص ٣٢ وما يليها .
- أهل الذمة فى مصر ، فى العصرين الفاطمى الثانى والايوبى رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الآداب - جامعة القاهرة ، ١٩٧٩م ص ٤٦ وما يليها (لم تطبع) .

ومما يدل على مدى انحطاط شأن الوزارة زمن البويهيين أن بختيار بن معز الدولة استوزر أبا طاهر محمد بن بقية ، وكان صاحب مطبخ أبيه معز الدولة . ولما انتصر عضد الدولة على ابن عمه بختيار ودخل بغداد أمر بابن بقية أن يشهر به في المعسكر على جمل ، ثم طرح إلى الفيلة فقتلته شر قتله ، وصلب على شاطيء دجله(١) .

وعلى الرغم من انحطاط شأن الوزارة والوزراء في العصر البويهي فقد اشتهر بعض وزرائهم . ومن أشهرهم أبو محمد الحسن المهلبي – وينتسب إلى المهلب بن أبي صفره – الذي استوزره معز الدولة ، وأبو الفضل محمد ابن العميد الذي استوزره ركن الدولة الحسن بن بويه ، والصاحب أسماعيل ابن عباد الذي استوزره مؤيد الدولة بن ركن الدولة كما وزر لأخيه فخر الدولة . وهو أول وزير لقب بالصاحب لأن مؤيد الدولة بن ركن الدولة كان شديد المحبة له وكان ابن عباد دائم الصحبة له فسماه مؤيد الدولة الصاحب ، وأصبح ذلك اللقب علماً عليه ، كما تلقب به كل من تقلد الوزارة بعد ذلك(٢) .

وبعد موت الصاحب بن عباد في سنة ٣٨٥ هـ أصبحت تولية الوزارة لمن يبذل للأمير البويهي مبلغاً أكبر ، وبذلك أصبح منصب الوزارة موضع مساومات ومنافسات . ولما ازداد أمر وزراء البويهيين انحطاطاً في بداية القرن الخامس الهجري خلع عليهم آمراء البويهيين الألقاب لترفع من شأنهم في نظر الرعية . ومن هذه الألقاب لقب علم الدين ، ومسعد الدولة ، وأمين الملة ، وشرف الملك ، ومنها أيضاً ألقاب رئيس الرؤساء ، وشرف الوزراء ، وجمال الورى . غير أن هذه الألقاب كانت خاليةمن أي مضمون ولذلك فقدت دلالتها .

ولم يختلف حال الوزراء مع السلاجقة عن حالهم مع البويهيين . غير

١ – محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٦٢ .
٢ – المرجع السابق ، ص ٦١–٦٥ .

أن هذا لم يمنع أيضاً من بروز بعض وزرائهم وذيوع صيتهم . ومن ألمع وزراء السلاجقة ، بل ومن أشهر وزراء الدولة الإسلامية قاطبة الوزير نظام الملك الذي وزر للسلطان السلجوقي ملكشاه(١) .

وابتداء من غلبة الأتراك على الخلافة العباسية حتى سقوطها فسد اللسان خلال هذه الفترة كلها وأصبحت الكتابة صناعة غلب عليها التكلف ينتحلها بعض الناس فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك(٢) . فتذكر لنا المصادر على سبيل المثل ـ أن أحد أصحاب ديوان الرسائل في القرن الثالث الهجري عين رجلا أتاه بطلب الكتابة ، وكان يعطيه في كل شهر أربعين ديناراً ليقوم بالإجابة على الرسائل التي ترد إلى الديوان(٣) . فقد لعب المال منذ القرن الثالث الهجري دوراً سيئاً في حياة عمال الدواوين ، وكان لكل شيء ثمن يبذل وخصوصاً لمناصب الدواوين(٤) .

وأما عن ديوان الإنشاء (الرسائل) في العصر العباسي فيذكر لنا القلقشندي أنه كان تارة يضاف إلى الوزارة فيكون الوزير هو الذي ينفذ أموره بقلمه ويتولى أحواله بنفسه ، وتارة يفرد عنه بكاتب ينظر في أمره ، ويكون الوزير هو الذي ينفذ أموره بكلامه ، ويصرفها بتوقيعه على القصص(٥) ونحوها ، وصاحب ديوان الإنشاء يعتمد ما يرد إليه من ديوان الوزارة ويمشي على ما يلقى إليه من توقيعه ، وربما وقع الخليفة بنفسه حتى

---

١ ـ المرجع السابق ، ص ٦٥ـ٦٦ .

٢ ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٨٩ .
ـ آدم متز : المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٥٩ـ١٦٧ .

٣ ـ آدم متز : المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٥٩ .

٤ ـ آدم متز : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦١ وما يليها .
ـ محمد جمال الدين سرور : الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ص ٦٥ .

٥ ـ هى الشكاوى التى يرفعهـــا أفراد الرعية الى الخليفة أو الى السلطان ، وتعرف بالرقاع .

بعد غلبة ملوك الأعاجم من الديلم (بنو بويه) وبني سلجوق وغيرهم على الأمر ، والأمر على ذلك تارة وتارة إلى انقراض الخلافة من بغداد(١) .

غير أنه يبدو أنه في أواخر الدولة العباسية استقلت كتابة الإنشاء عن الوزير ، فقد عهد فيها إلى غير الوزراء وكان الكتّاب في بغداد يقال لهم كتّاب الإنشاء وكان كبيرهم يدعى رئيس ديوان الإنشاء أو كاتب السِّر وكانت أُمور ديوان الإنشاء – موكولة إلى الوزير ، وإلى ديوان الوزير – الذي كان يسمى الديوان العزيز وإليه ترفع مكاتبات الملوك إلى الخلفاء . هذا ويشبهه البعض بديوان الرياسة أو زوارة الخارجية في زماننا(٢) .

وفي العصر العباسي استحدث الخلفاء العباسيون الكثير من الدواوين التي استدعتها حاجة الدولة وتطورها ، كما توسعوا فيما كان موجوداً منها من قبل . هذا ويذكر لنا المؤرخون أن الدواوين بلغ عددها في العصر العباسي الثاني ٢٤ ديواناً(٣) . ويهمنا في هذا المجال الدواوين التي استحدثت والتي يتصل عملها بديوان الإنشاء لأن هذه الدواوين ، وإن كانت في العصر العباسي دواوين مستقلة عن ديوان الإنشاء ، إلا أننا سنراها في مصر في العصر المملوكي تندمج في ديوان الإنشاء وتؤول اختصاصاتها إلى صاحب ديوان الإنشاء(٤) .

وهذه الدواوين المستحدثة التي نعنيها هي :

---

١ ـ صبح الاعشى : ج ١ ، ص ٩٣ .

٢ ـ جورجى زيدان : التمدن الاسلامى ، الطبعة التى اشرف عليها حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

٣ ـ عن الدواوين فى العصر العباسى ، انظر آدم متز ـ المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٧ وما يليها .
ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٩ وما يليها .

٤ ـ انظر بعد الباب الثالث والرابع .

● **ديوان التوقيـع :**

وإليه تنتهي رقاع (أي القصص) من يسأل شيئاً عن الخليفة ، بعد أن يراها صاحب ديوان الدار(١) ويتقصى المسألة والرقعة ويشرح حالها وما لعله يكون جرى فيها . وبعد أن يستطلع صاحب ديوان التوقيع رأي الخليفة فيها ويوقع عليها بخطه في ديوان التوقيع يرسل إلى صاحب ديوان الدار بنسخها أو اقتصاص ما تضمنت ، وكان الفصل في أمر الرقعة يكتب على الرقعة نفسها توقيعاً من الخليفة أو كاتبه ، وقد بلغت هذه التوقيعات أقصى ما يمكن أن تبلغه من الاختصار والبلاغة(٢) .

وأما عن الصلة بين التوقيع على القصص والكتابة فيوضحها لنا ابن خلدون بقوله (ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان

---

١ - كان لكل ولاية ديوان ببغداد يدير شئونها ، وكان كل من هذه الدواوين يتألف من قسمين : أولهما الاصل ويختص بوضع الضرائب وحملها الى بيت المـــال ومراقبة الضرائب وتقوية مواردها . وثانيهما : الزمام أو ديوان المال . ولما تولى الخليفة المعتضد (٢٧٩ـ٢٨٩هـ/٨٩٢ـ٩٠٢م) ضم دواوين الولايات كلها والف منها ديوانا سماه « ديوان الدار » ، وله ثلاثة فروع : ديوان المشرق ،وديوان المغرب ، وديوان السواد (أى العراق) كما وضع المعتضد أزمة هذه الدواوين كلها فى يد رئيس واحد وفى سنة ٣٠٠هـ جعلت أصول هذه الدواوين فى يد رئيس واحد وبذلك أصبح ديوان الدار ينقسم فى القرن الرابع الهجرى الى ديوانين وهما : ديوان الاصول . وديوان الازمة (انظر آدم متز : نفس المرجع السابق ص ١١٧ـ١٤٨ ج ١) ، ومحمد جمال الدين سرور ، المرجع السابق ، ص ٩٩) .

٢ - آدم متز : نفس المرجع السابق الجزء ١ ، ص ١٥٣ . عن توقيعات الخلفاء ، انظر جورجى زيدان : التمدن الاسلامى، الطبعة التى أشرف عليها حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٢٥٤ـ٢٥٧ . وانظر أيضا محمد رياض العشيرى : صور من الحياة الاسلامية فى فن التوقيعات ، مجلة الفيصل ، العدد ٣٣ ، ربيع الاول ١٤٠٠هـ ، ص ١٣٤ـ١٣٧ .

(أو الخليفة) في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاه عن السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فأما أن تصدر كذلك وأما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ، ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان جعفر ابن يحيى يوقع في القصص بين يدى الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف منها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل أنها كانت تباع كل قصة منها بدينار . وصاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المرؤة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها) (١) .

● **ديـوان الفض :**

وترد إليه الكتب التي ترد من العمال في النواحي إلى الخليفة ، ومنه تخرج إلى الدواوين بعد فضها وأخذ جوامعها ليقرأها الخليفة ويوقع فيها بما يراه . وكان هذا الرسم جارياً في أول الأمر لما كان الخلفاء هم الذين يتولون النظر في الكتب بأنفسهم ، ثم آل ذلك إلى الوزير وانتقل عمل ديوان الفض إلى حضرة الوزير وصار المتولي له كاتباً برسمه في دار الوزير(٢) .

وأما الدواوين التي كانت موجودة من قبل وحدث توسع فيها أو تطوير في نظم العمل بها فيهمنا منها ديوان البريد نظراً لما له من صلة قوية بديوان الرسائل .

---

١ ـ المقـدمة : ص ١٩٥ .
٢ ـ آدم متز : المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٥٤ .

ففي العصر العباسي تطورت نظم العمل بديوان البريد تطوراً كبيراً ، كما زاد الخلفاء العباسيون من اختصاصات صاحب ديوان البريد في بغداد ومن اختصاصات عمال البريد في الولايات ، فضلا عن اهتمامهم بطرق البريد وبالمحطات القائمة بها وتزويدها بالخيل وبالجمازات(1) .

فقد بلغ اهتمام العباسيين بالبريد لدرجة أنهم كانوا يكتبون لصاحبه عهداً عن توليته يوضحون له فيه الخطة التي يجب عليه أن يحتذيها في عمله . فقد كان صاحب البريد هو صاحب الأخبار ، وكان له « عيون » يوافونه بالأخبار التي تهم الدولة ، بل كان عليه أيضاً أن يبلغ الخليفة كل ما عدا ذلك من غرائب الأخبار(2) .

ولم يعد نقل البريد قاصراً على الخيل كما كان في العصر الأموي فقد استخدمت الجمازات في زمن الحروب . وكان بداية استخدام الجمازات في نقل البريد زمن الحروب سنة ٣٠١ هـ حين أمر الوزير علي بن عيسى باستخدامها بين بغداد ومصر حين شرع الفاطميون في غزو البلاد المصرية وذلك ليقف على حقيقة الحال كل يوم ، ثم توسع أمراء بني بويه في استخدامها فيما بعد .

كما استخدم الحمام الرسائلي (الزاجل) في نقل البريد ، ويقال أن أول استخدام له كان في عهد الخليفة المعتصم حين نقل إليه خبر القبض على بابك الخرمي . ولم يلبث أن شاع استخدام الحمام الرسائلي في نقل البريد في القرن الرابع الهجري(3) .

---

١ ـ الجماز مشتق من جمز ، ويسمى الجمل البلخي جمبيس ، وهو من أسرع الجمال بفارس .

٢ ـ آدم متز : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥١ـ١٥٣ .

٣ ـ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٠١ـ١٠٥ .

الكتابة وديوان الانشاء والوزراة فى مصر
منذ عصر الولاة حتى نهاية العصر الايوبى

وفي الفترة الأولى من تاريخ مصر الإسلامية ، أي في عصر الولاة (٢٣ – ٢٥٤ هـ) وفي العصر الطولوني (٢٥٤ – ٢٩٢ هـ) كان الكاتب بمثابة الوزير للوالي وللأمير الطولوني ، وذلك على غرار أحوال الكتّاب مع خلفاء بني أمية(١) .

كما لم يكن يوجد في مصر الإسلامية في عصر الولاة ديوان للإنشاء لاقتصار المكاتبات على الخلفاء الأمويين والعباسيين . ولذلك لم يصدر عن الكتّاب في هذا العصر ما تتناقله الألسنة أو تحفظه المصادر .

وبعد أن استقل أحمد بن طولون بحكم مصر ومد نفوذ دولته إلى بلاد الشام وإلى برقة أخذ في وضع رسوم المملكة ، ومن هذه الرسوم ديوان الإنشاء . فقد اقتضت كثرة المكاتبات المتبادلة بين الخلفاء العباسيين وأمراء الطولونيين ، وكثرة الرسائل المتبادلة بين أمراء الطولونيين وولاتهم وعمالهم وضع هذا الديوان . ومن أشهر الكتّاب زمن الطولو نيين أحمد بن مودود ابن عبد كاتب أحمد بن طولون ، واسحق بن نصر العبادي النصراني كاتب ابنه خمارويه(٢) .

ولم تستحدث الوزارة في مصر إلا زمن الأخشيد يين . وكانت أعلى الوظائف رتبة ، وتليها الكتابة . وكان الكاتب يقوم بعمل الوزير إذا رأى الأمير الاستغناء عنه(٣) .

---

١ ـ أبو زيد شلبى : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٠٧ .
٢ ـ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩٥ .
٣ ـ أبو زيد شلبى : نفس المرجع والصفحة .

وأما في الدولة الفاطمية فلم تكن الوزارة أعلى الوظائف رتبة ، وإنما كان قاضي القضاة أجل أرباب الوظائف عند الخلفاء الفاطميين ، ويليه في المكانة داعي الدعاة . هذا و لم يتخذ الخلفاء الفاطميون وزراء إلا في عهد العزيز بالله ثاني خلفائهم في مصر . وكان أول من تولى الوزارة يعقوب ابن كلس الذي كان يهودياً ثم أسلم وحسن إسلامه . كما استحدث الخلفاء الفاطميون في العصر الفاطمي الأول وظيفة الوساطة ، وكانت أعلى رتبة من الوزارة ، غير أنها كانت أحياناً تبطل ويستعاض عنها بالوزارة ، والعكس بالعكس .

وفي العصر الفاطمي الثاني الذي يبدأ بقدوم بدر الجمالي بناء على استدعاء الخليفة المستنصر بالله له ليتولى إصلاح الأمور في مصر بعد الشدة العظمى التي كانت قد تعرضت لها ازدادت سلطة الوزراء على حساب سلطة الخلفاء ، ولذلك يعرف هذا العصر بعصر نفوذ الوزراء . فقد كانت سلطتهم مطلقة ، كما تلقبوا بألقاب الملوك . ومن أشهر وزراء العصر الفاطمي الثاني بدر الجمالي وابنه الأفضل وشاور وضرغام اللذان دفعهما التنافس من أجل الفوز بالوزارة والاستئثار بالسلطة إلى الاستنجاد بكل من الصليبيين ونور الدين محمود صاحب إمارتي دمشق وحلب . وقد أدت هذه الأحداث إلى قدوم أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين إلى مصر ، ثم سقوط الدولة الفاطمية في سنة ٥٦٧ هـ ، وقيام الدولة الأيوبية .

هذا ومن الملاحظ أن معظم وزراء الفاطميين كانوا اسلميين ، أي حديثي العهد بالإسلام ، كما كان بعضهم من النصارى واليهود(١) .

---

١ ـ عن الوزارة فى العصر الفاطمى انظر محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، طبعة دار المعـــارف بمصر .

وأما عن ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي فيحدثنا القلقشندي بقوله (ولما ولي الفاطميون الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتّابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولي ديوان الإنشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتّاب وبلغائهم ، ما بين مسلم وذمي فكتب للعزيز بالله بن المعز أبو المنصور بن سورد بن النصراني ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه . فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر البهزكي ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر ، وكتب للمستنصر القاضي ولي الدين بن خيران ، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة وأبو سعيد العميدي . وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أسامة الحلبي إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفي في أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرئاسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجد المعروف بابن الصيرفي ، والقاضي كافي الكفاة محمود بن القاضي الموفق أسعد بن قادوس ، وابن أبي الدم اليهودي . . ثم كتب بعد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره القاضي الموفق ابن الخلال أيام الحافظ ، وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضي الفاضل البيساني ، ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال في ديوان الإنشاء القاضي جلال الملك محمود بن الأنصاري ، وكان في أيامه القاضي المؤتمن كاسيبويه .

= ـ سلام شافعى محمود سلام : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الاول ، رسالة ماجستير مقدمة الى كليـــة الاداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٦ (لم تطبع) ، ص ٣٢ وما يليها .

ـ سلام شافعى محمود سلام : أهل الذمة فى مصر فى العصرين الفاطمى الثانى والايوبى ، رسالة دكتوراة مقدمة الى كليـة الاداب ـ جامعـــة القـــــاهرة ١٩٧٩ (لم تطبع) ، ص ٤٦ وما يليهـا .

ثم كتب القاضي الفاضل بن بدي الموفق ابن الخلال قرب وفاته في سنة ست وستين وخمسمائة في وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب . وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم) (١) .

وعن ديوان الإنشاء في الدولة الأيوبية يضيف القلقشندي قوله فلما استقل السلطان صلاح الدين المذكور بالملك وخطب لبني العباس على ما تقدم في الكلام على ملوك مصر ، فوض إلى الفاضل الوزارة وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيهما جميعاً ، وأقام على ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين ، فكتب بعده لابنه العزيز وأخيه العادل أبي بكر ، ثم مات . وكتب للكامل ابن العادل القاضي أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدَّرْج(٢) إلى أن توفي ، فكتب بعده للكامل الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلبي مدة قليلة . وتوالى كتّاب الإنشاء في الولاية إلى أن ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب فولى ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهيرا ، ثم صرفه وولّى بعده الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان الأسعردي ، فبقي إلى انقراض الدولة الأيوبية) (٣) .

الكتابة والوزارة فى الاندلس وفى المغرب

وأما دولة بني أمية بالأندلس فلم تعرف نظام الوزارة إلا في خلافة عبد الرحمن الناصر . فالأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ — ١٧٢ هـ) نقل معه إلى الأندلس النظم والتقاليد الأموية التي كانت مطبقة في دولة بني أمية

---

١ ــ صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩٦ .

٢ ــ عن كتاب الدرج ، انظر بعد الباب الثانى ، ص ٤٩ .

٣ ــ صبح الاعشى : ج ١ ، ص ٩٧ .

بالشرق ، فلم يتخذ له وزيراً وإنما اتخذ له كتاباً يتولون الكتابة ، كما عين له أشياخاً للمؤازرة والمشاورة ، ثم تطور هذا النظام وأصبح يطلق على هؤلاء الأشياخ لقب وزير ويعينهم الأمير للاعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة .

فالكتابة في دولة بني أمية بالأندلس كانت على ضربين ، كاتب الرسائل وكاتب الزمام . فأما كاتب الرسائل فقد كان يتولى ديوان الرسائل ، وكان أعلى منزلة من كاتب الزمام فقد أوكل إليه الإشراف على المكاتبات الرسمية وكانت له منزلة عظيمة عند أهل الأندلس فيخاطبونه في رسائلهم باسم الكاتب ، وفيما بعد في عصر الخلافة بالكاتب الوزير لأنه كان أحد الوزراء . وأما كاتب الزمام فقد كان يشرف على إدارة الأموال العامة والجبايات وإحصاء الجند وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم .

وفي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) لم يقتصر أمر الشيوخ الذين كان يخصهم الأمير بالمجالسة على الإعانة والمشاورة وإنما أصبح يشمل أيضاً تنفيذ أمر الأمير ونهيه ، كما خُصص لهم في قصر الأمير مجلس خاص يذهبون إليه كل يوم ويجلسون على مقاعد خاصة لكل منهم .

وفي سنة ٣٤٢ هـ قام الخليفة عبد الرحمن الناصر بإعادة النظر في الجهاز الحكومي للدولة بما يقضي على هذه الازدواجية بين الهيئة التنفيذية الممثلة في كاتب الرسائل وكاتب الزمام ، والهيئة الاستشارية الممثلة في الأشياخ الذين كان يخصهم الأمير بالمشاورة أو لتنفيذ أمره ونهيه . فقد أصبح على رأس الجهاز الحكومي للدولة حاجب ويعاونه في ذلك أربعة وزراء خصص لكل منهم أمر من أمور الدولة يشرف عليه . وفي هذا يقول ابن خلدون ، (وأما دولة بني أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، وللترسيل وزيراً ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر في أحوال

أهل الثغور وزيراً ، وجعل لهم بيتا يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له . وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب (١) .

وبذلك أصبح الحاجب واسطة بين الخليفة وبين الوزراء الأربعة ومن دونهم . وعند اجتماع الوزراء كان الحاجب يقعد في صدر بيت الوزارة على أريكة مفروشة بالديباج وترتفع قليلا عن أرائك سائر زملائه الوزراء الذين كانوا يجلسون على أرائك مفروشة بالكتان . ومنذ سنة ٣٦٦ هـ أصبح الوزراء يجلسون على أرائك مفروشة بالديباج مثلهم مثل الحاجب وذلك بناء على رجاء الحاجب جعفر المصحفي لدى الخليفة هشام المؤيد في أول عهده بالخلافة . ولكن عندما استبد الحاجب المنصور بن أبي عامر بالسلطة دون الخليفة هشام المؤيد وحجبه عن الخاصة والعامة وتلقب بألقاب الملك أصبح يعين الوزراء ويعزلهم وكذلك فعل ولداه اللذان أورثهم الحجابة من بعده .

وبجانب كاتب الرسائل الذي أصبح يعرف في عصر الخلافة بالكاتب الوزير أو بوزير الترسيل فقد كان للأمير الأموي كاتب خاص له . وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط أول من اتخذ كاتباً خاصاً له ، ثم سار الأمراء والخلفاء الأمويون من بعده على هذا النظام حتى سقوط الخلافة . وكان هذا الكاتب الخاص يتلقى من الأمير ومن الخليفة الردود على استفسارات المسئولين أو القرارات التي يريد الأمير أو الخليفة إخطارهم بها ، سواء أكانوا في

١ ـ المقدمة : ص ١٨٩ .

قرطبة أو في عواصم الولايات والثغور وقد أطلق على هذا الكاتب في بعض الأوقات اسم صاحب الإنشاء .

كما تقلد هذه الوظيفة في عصر الخلافة بعض النساء ومن أشهرهن ، مزنة كاتبة الخليفة عبد الرحمن الناصر والتي توفيت سنة ٣٥٨ هـ ، ولبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر والتي توفيت سنة ٣٧٤ هـ(١) .

وفي العصر المتأخر في الأندلس كان الوزير يجمع له أحياناً الترسيل ، وأحياناً أخرى كان ينفرد به كاتب الرسائل ، كما أصبح السلطان هو الذي يضع خطه على السجلات(٢) .

وأما في المغرب فلم يكن للقائمين به عناية بديوان الإنشاء في فترة تبعيته للخلافة الأموية والعباسية ، إذ إقتصرت المكاتبات إلى ديوان الخلافة في دمشق وفي بغداد(٣) . وقد ظل القائمون بأمر المغرب حتى قيام الدويلات المستقلة به ، بل حتى قيام الدولة الفاطمية به في سنة ٢٩٦ هـ لا يهتمون بهذه النظم ، وبخاصة الوزارة والكتابة ، وذلك لقرب عهدهم بالبداوة . ولم يأخذ الفاطميون بهذه النظم إلا بعد أن أدركت دولتهم الحضارة فأخذوا يقلدون بني أمية وبني العباس في هذا الصدد(٤) .

وبعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى القاهرة تقلبت الدول على بلاد المغرب ، وكان آخر العهد بها في العصر الإســلامي دولة بني مرين في المغرب

١ ـ عن الوزارة والكتابة فى الاندلس انظر هاشم سليم عبدالرحمن ابو رميلة .
ـ نظم الحكم فى الاندلس فى عصر الخلافة ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب ـ جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ (لم تطبع) عن الوزارة ص ١٤٩ـ١٥٣ ، وعن الكتابة ص ١٦١ـ١٦٥ .

٢ ـ ابن خلدون : المقــدمة ص ١٩١ .

٣ ـ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩٤ .

٤ ـ ابن خلدون : المقــدمة ، ص ١٨٩ .

الأقصى ، ودولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط ، ودولة الحفصيين في المغرب الأدنى . وكان حال ديوان الإنشاء في هذه الدول التي تعاقبت على حكم المغرب حسب ما كان عليه القائمون بأمرها من البداوة والحضارة . فأوائل حكامها القريبون عهداً بالبداوة لم يكن لهم عناية بكتابة الإنشاء ، ولما أدركت دولهم الحضارة وأخذت بأسبابها أخذ حكامها في اقتباس نظم الحكم المعمول بها في الدول الإسلامية المعاصرة لهم ، وكان على رأس هذه النظم التي اقتبسوها خطة الكتابة ، فأخذوا في ترتيب دواوين الإنشاء في دولهم (١) .

وممن اشتهر بالبلاغة من كتّاب المغاربة والوزراء أبو الوليد بن زيدون ، والوزير أبو حفص بن برد الأصفر الأندلسي ، وذو الوزارتين أبو المغيرة ابن حزم ، والوزير أبو القاسم محمد بن الحد وجماعة أخرى من متقدمي كتابهم . ومن متأخريهم عبد المهيمن كاتب السلطان أبي الحسن المريني ، وابن الخطيب وزير ابن الأحمر صاحب غرناطة في الأندلس(٢) .

---

١ ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٨٩ .
ـ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٩٤ـ٩٥ .
٢ ـ القلقشندى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩٥ .

(البــــاب الثـــاني)

« كاتب السِّــــر »

(اللقب ، نشأته ، ومدلوله)

كاتب السّـــــر

كاتب السّر هو أحد الألقاب التي عرف بها صاحب ديوان الإنشاء(١) . وهو لقب قديم يرجع تاريخ نشأته إلى عهد الرسول ، كما عرف به صاحب ديوان الإنشاء من حين لآخر على طول امتداد تاريخ الدولة الإسلامية عامة ، وعلى طول امتداد الدول التي تعاقبت في حكم مصر الإسلامية خاصة .

غير أنه في بداية العصر المملكوكي ، وعلى وجه التخصيص – منذ بداية عهد السلطان المنصور قلاوون أصبح ذلك اللقب هو الذي يعرف به بصفة دائمة صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، ومن ثم شاع استخدامه على ألسنة الخاصة والعامة . ولذلك وقر في الأذهان أن هذا اللقب من الألقاب التي يرجع تاريخ نشأتها إلى هذه الفترة من تاريخ مصر الإسلامية .

وليس الأمر قاصراً على مجرد شيوع ذلك اللقب في هذه الفترة ، وإنما الأمر تعدى ذلك إلى الناحية الموضوعية . فقد ارتبط ذلك بتطور نظم الحكم مع بداية هذه الفترة وعلى طول امتدادها ، فشمل ذلك التطور – فيما شمله – وظيفة صحابة ديوان الإنشاء سواء من حيث رتبة متوليها بين أصحاب الوظائف الديوانية الأخرى بالحضرة السلطانية ، أو من حيث الاختصاصات العديدة والهامة التي أصبحت موكولة إليه . وعلى هذا النحو اكتسب اللقب مدلولا جديداً في العصر المملوكي ، وهذا مما حدا ببعض مؤرخي مصر المملوكية إلى القول بأن اللقب جديد وأن وظيفة كتابة السّر من الوظائف التي استحدثت في بداية ذلك العصر(٢) .

---

١ – الالقاب الاخرى التى عرف بها صاحب ديوان الانشـــاء هى : صاحب ديوان الرســائل أو متولى ديوان الرسـائل ، وصاحب ديوان المكاتبات أو متولى ديوان المكاتبـــات – انظـر : صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ٩٠،٩٣ .

٢ – انظـر بعـد .

هذا ويتضح لنا صحة هذا الرأي الأخير إذا ما استعرضنا تاريخ استخدام ذلك اللقب في الفترات السابقة على العصر المملوكي . فاللقب ترجع نشأته إلى عهد الرسول (ص) ، إذ يروى عن زيد بن ثابت قول الرسول (ص) له:تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد فهل تستطيع أن تعلم كتابة العبرانية ، أو قال السريانية . فقلت نعم ، قال : فتعلمتها في سبع عشرة ليلة . غير أن اللقب وإن كانت نشأته ترجع إلى هذه الفترة المتقدمة من تاريخ الإسلام إلا أنه لم يطلق على صاحب ديوان الإنشاء إلا في العصر العباسي . فخلال الفترة الممتدة من قيام الدولة العباسية حتى بداية حكم السلاجقة كان صاحب ديوان الإنشاء يطلق عليه تارة رئيس ديوان الإنشاء ، وتارة أخرى كاتب السر . وفي الفترة التالية من حياة الدولة العباسية أصبح ديوان الإنشاء يعرف بديوان الطغرا ، ومن ثم أصبح متوليه يعرف بالطغرائي(١) .

وإذا ما انتقلنا إلى مصر الإسلامية ، وخاصة منذ بداية العصر الفاطمي ، نجد أن اللقب الذي شاع إطلاقه على من كان يتولى صحابة ديوان الإنشاء هو الدست(٢) الشريف ، أو كاتب الدست الشريف . غير أن لقب كاتب

١ ـ الخطط ، طبعة بولاق ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٦ (الطغرا لفظة فارسية وهى الطرة التى كانت توضع فى أعلا الكتاب وتتضمن ألقاب الملك ، وكانت تقوم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى بها عن علامة السلطان ٠ وأول من عرف بذلك هو مؤيد الدين الطغرائى) ٠

٢ ـ الدست هو الموكب الذى يرافق الخليفة أو السلطان أو الامير فى روحاته وغدواته ٠ ومن معانيه الحاشية التى تحيط بالخليفة أو السلطان أو الامير ٠ ومن معانيه أيضا مرتبة جلوس الخليفة أو السلطان أو الامير ، وهو المعنى الذى نحن بصدده ٠ ـ انظر : السلوك ، طبعة الدكتور زياده ، الجزء الاول ، ص ١٩٧ ، حاشية رقم ١ ٠
ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣٧ ٠
ـ المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا ، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٤٥ تاريخ ، ورقمه ١٠٩ ٠

السِّرّ كان يطلق من حين لآخر ، في ذلك العصر ، على صاحب ديوان الإنشاء وخاصة عندما كان يستقل في شئون ديوانه عن الوزير(١) . وأول من تلقب بذلك اللقب في العصر الفاطمي هو أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي بعد أن صرف عن الوزارة وانفرد برئاسة ديوان الإنشاء في خلافة المستنصر بالله سنة ٤٥٤ هـ(٢) .

وأما في العصر الأيوبي فلا نستطيع أن نتبين مما ذكرته المصادر عن ديوان الإنشاء صفة صاحبه أو اللقب الذي كان يتلقب به(٣) . وكل ما أمكننا معرفته ، في هذا الصدد ، أن ديوان الإنشاء كان يتولى رئاسته أقدم كُتّاب الدَّرْج(٤) أو أكفأهم . فالمقريزي في حديثه عن كُتّاب الدَّرْج في الدولة

---

١ ـ الاصل فى ديوان الانشاء أن مرجعه الى الوزير · انظر :
ـ الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ، مطبعة الحلبى سنة ١٣٥٧هـ ، ص ٢٦٦ـ٢٦٧ ·
ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ٩٣ ·
ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٦ ·

٢ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ٩٥ (من الدولة الطولونية الى حين انقراض الاخشيدية) ، ص ٩٦ (من ابتداء الدولة الفاطمية الى انقراضها) ص ١٠٣ ·
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١ ·
ـ حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ، الجزء الثانى ، ص ٩٢٢ـ٩٢٣ ، والحاشية رقم ٢ (ممن تلقب بهذا اللقب فى أواخر العصر الفاطمى كاتب السر شيرما الذى تآمر على صلاح الدين فى سنة ٥٦٩هـ) ·

٣ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ٩٦ـ٩٧ (من ابتداء دولة بنى أيوب الى آخر انقراضها)·

٤ ـ عرفوا بذلك لغالب كتابتهم فى درج الورق الخزاينى ، والمراد بالدرج فى العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، وهو فى عرف ذلك الوقت عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير · وكان كُتّاب الدرج فى الدولة المملوكية يلون فى الرتبة كُتّاب الدست ، انظر : =

الأيوبية يذكر أنهم كانوا في عهد الملك الكامل قليلين جداً وأنهم كانوا في غاية الصيانة والنزاهة وقلة الخلط بين الناس وأن الصاحب زين الدين يعقوب ابن الزبير – وهو ممن تولوا الوزارة في هذه الفترة كان أحدهم(١) .

ويزداد اضطراب المصادر المعاصرة مع بداية الدولة المملوكية ، فالمقريزي في حديثه سنة ٦٦١ هـ عن المجلس الذي عقده الظاهر بيبرس للأمير أبي العباس أحمد ، وهو المجلس الذي ثبت فيه صحة نسبه إلى العباسيين ، يذكر أن الذي تولى قراءة نسبه القاضي محي الدين بن عبد الظاهر كاتب السِّر(٢) . غير أنه في حديثه ، فيما بعد ، عن حوادث تلك السنة أيضاً ، يذكر أن الظاهر بيبرس أحضر الصاحب فخر الدين محمد بن حنا وزير الصحبة(٣) وجماعة كتاب الدَّرْج ، وهم سبعة أولهم الصاحب فخر الدين بن لقمان(٤) .

هذا ويذكر لنا القلقشندي أن الصاحب فخر الدين بن لقمان تولى صحابة ديوان الإنشاء في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أن صرف عنها الصاحب بهاء الدين زهير ، وظل بها حتى سقوط الدولة الأيوبية . ولما صارت المملكة إلى الدولة المملوكية ، بقي في صحابة ديوان الإنشاء أيام المعز أيبك والمظفر قطز ، والظاهر بيبرس ثم المنصور قلاوون إلى أن نقل من صحابة ديوان الإنشاء إلى الوزارة ، وتولى عوضه صحابة ديوان الإنشاء القاضي فتح الدين بن القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في حياة والده(٥) .

= – صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣٨ .
– المقصد الرفيع ، ورقة ١١٠ .
— STERN : Fatimid Decrees, p. 103

١ – الخطط ، طبعة بولاق ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٧ .
٢ – السلوك ، طبعة الدكتور زياده ، الجزء الاول ، ص ٤٧٧ .
٣ – وزير الصحبة هو الذى كان يصاحب السلطان فى أسفاره وحروبه بينما كان الوزير الاصلى يظل مقيما بالقاهرة .
٤ – السلوك ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٤٨٩ .
٥ – صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ٩٧ .

وفي موضع آخر يذكر أنه في أوائل الدولة المملوكية كان يلي الديوان تارة كاتب واحد يعبر عنه بكاتب الدست ، وكانوا ثلاثة في أيام الظاهر بيبرس ، أرفعهم درجة القاضي محي الدين بن عبد الظاهر . وبقي الأمر على ذلك إلى أن ولي الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر في أيام المنصور قلاوون فلقب بكاتب السرّ ، ونقل لقب كاتب الدست إلى طبقة دونه من كتّاب الديوان(١) .

وفي حديثه ، فيما بعد ، عن كتّاب الدست يذكر أنهم كانوا في أوائل الدولة المملوكية ، في عهد السلطان الظاهر بيبرس ومن والاه ، وقبل أن يلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر ثلاثة كتاب ، رأسهم القاضي محي الدين بن عبد الظاهر(٢) .

على أن جميع المؤرخين يجمعون على أن الصاحب فخر الدين بن لقمان كان رئيس الموقعين بديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وأنه هو الذي تولى صحابة ديوان الإنشاء منذ أواخر الدولة الأيوبية خلفاً لبهاء الدين زهير ، وأنه ظل بها إلى أن صرف عنها بالقاضي فتح الدين بن عبد الظاهر ، الذي كان أول من تلقب بلقب كاتب السرّ في الدولة المملكوكية(٣) .

وينبري ابن تغري بردي ، من بين هؤلاء المؤرخين ، ليدلل لنا على

---

١ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٠٤ .
٢ ـ نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٣٧ .
ـ السلوك ، طبعة الدكتور زياده ، الجزء الاول ، ص ٧٨٧
(يصفه القريزى بانه كان لسان ديوان الانشاء) .
٣ ـ انظر :
ـ السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الاول ، ص ٦٨٢ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٦ .
ـ النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، الجزء السابع ، ص ٣٢٨
الجزء الثامن ص ٥٠ـ٥١ .
ـ السيوطى ، حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ، ص ١٧٤ .

أن القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر هو أول كاتب سر سواء في الدولة التركية أو فيما سبقها من الدول وأن كتابة السرّ وظيفة جديدة ترجع نشأتها إلى تاريخ تعيين القاضي فتح الدين بها في أوائل عهد المنصور قلاوون . ففي هذا الصدد يقول : (وهو أول كاتب سر في الدولة التركية وغيرها ، وإنما كانت هذه الوظيفة في ضمن الوزارة والوزير هو المتصرف في الديوان ، وتحت يده جماعة من الكتّاب الموقعين ، وفيهم رجل كبير كنائب كاتب السر الآن ، سمي في الآخر صاحب ديوان الإنشاء . ومن الناس من قال : أن هذه الوظيفة قديمة ، واستدل بقول صاحب صبح الأعشى وغيره(١) ممن كتب للنبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده . ورد على من قال ذلك جماعة آخرون وقالوا : ليس في ذكر من كتب للنبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الخلفاء دلالة على وظيفة كتابة السر ، وإنما هو دليل لكل كاتب كتب لملك أو سلطان أو غير هما كائناً من كان . فكل كاتب كتب عند رجل يقول : هو أنا ذاك الكاتب . وإذا الأمر احتمل واحتمل سقط الاحتجاج به ، ومن قائل أن هذه الوظيفة ما أحدثها إلا الملك المنصور قلاوون فهو الأصح(٢) .

ثم يعود بعد ذلك ، ببضع صفحات ، ليشرح الظروف التي دعت المنصور قلاوون إلى إحداث هذه الوظيفة وتعيين القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر بها . فيذكر أنه في أيام الظاهر بيبرس كان الدوادار(٣) بليان بن عبد الله الرومي من أعيان الأمراء ومن نجبائهم وكان الظاهر بيبرس يعتمد عليه ، ويحمله أسراره إلى القصاد وكان يباشر وظيفة الدوادارية ولم يكن معه كاتب سر . فاتفق أنه قال يوماً لمحي الدين بن عبد الظاهر : أُكتب إلى فلان مرسوماً أن يطلق له من الخزانة العالية بدمشق عشرة آلاف درهم ، نصفها عشرون ألفاً .

١ – صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ٨٩ .
– الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٦ .
٢ – النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، الجزء السابع ، ص ٢٩٣ .
٣ – عن الدوادار ووظيفته فى البلاد المملوكى انظر بعد ، ص ٥٧ .

فكتب المرسوم كما قال وجهزه إلى دمشق ، فأنكروه وأعادوه إلى السلطان وقالوا ما نعلم ! هل هذا المرسوم بعشرين نصفها عشرة أو بعشرة نصفها خمسة ؟ فطلب السلطان محي الدين وأنكر عليه ذلك ، فقال : يا خوند ، هكذا قال لي الأمير سيف الدين بلبان الدوادار . فقال السلطان : ينبغي أن يكون للملك كاتب سر يتلقى المرسوم منه شفاهاً . وكان قلاوون حاضراً من جملة الأمراء فوقرت هذه الكلمات في صدره ، فلما تسلطن اتخذ كاتب سر ، وكان القاضي فتح الدين أول من شهر بهذا الاسم(١) .

ولم يقتصر الأمر على عدم استتباع كتابة السر للوزير ، وإنما تعداها إلى أن أصبح كاتب السر هو المتقدم على الوزير في قراءة الكتب في حضرة السلطان . وذلك أن القاضي فتح الدين نجح في أن يكسب ثقة المنصور قلاوون ، وابنه الأشرف خليل ، فعظمت منزلته لديهما . وفي يوم من الأيام دخل الوزير فخر الدين بن لقمان على السلطان قلاوون ، فأعطاه قلاوون كتاباً يقرأه . فلما دخل فتح الدين أخذ السلطان الكتاب منه وأعطاه لفتح الدين ، وقال لفخر الدين : تأخر . فعظم ذلك على فخر الدين . وكانت العادة إذ ذاك أن لا يقرأ أحد على السلطان كتاباً بحضرة الوزير(٢) .

---

١ ـ النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٣٣٢ـ٣٣٣ .
ـ يتفق السيوطى والخالدى صاحب العقد الرفيع مع ابن تغرى بردى فى هذا القول .
ـ انظر : حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ، ص ٩٨،١٧٤ ، والمقصد الرفيع ، ورقة ١٥،١٦ .

٢ ـ النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، من ٣٣٣ـ٣٣٤ .
ـ حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ، ص ١٧٤ (يروى السيوطى أن فتح الدين وابن لقمان كانا بين يدى السلطان عندما حضر كتاب فأراد الوزير أن يقرأه فأخذ السلطان الكتاب ، ودفعه الى فتح الدين وأمره بقراءته) .

وفي عهد الأشرف خليل بن قلاوون تأكد استقلال كاتب السر عن الوزير في مباشرة اختصاصاته ، وعلى رأسها ما يتولى كتابته عن السلطان . وكان الأشرف خليل بعد أن تولى السلطنة عين شمس الدين بن السلعوس في منصب الوزارة ، وفوض إليه ما يراه من أمرها من غير مشورة السلطان(١) . غير أن ابن السلعوس كان ينقصه شيء واحد لتجتمع في يديه السلطة المطلقة ويصبح صاحب الحل والعقد في المملكة ، وهذا الشيء هو أن يكون على علم بكل ما يكتب عن السلطان ويصدر عنه من مكاتبات . ولكي يتحقق له ذلك طلب من كاتب السر القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر أن يعرض عليه كل ما يكتبه عن السلطان فامتنع القاضي فتح الدين ورد عليه قائلا : لا سبيل إلى ذلك ، ولا يطلع على أسرار السلطان إلا هو . فغضب ابن السلعوس وعرض الأمر على السلطان ، إلا أن السلطان لم يوافقه على ذلك وأقر القاضي فتح الدين على تصرفه(٢) .

وعلى هذا النحو يتضح لنا ما يقصده ابن تغري بردي من قوله أن كتابة السر وظيفة جديدة أحدثها المنصور قلاوون ، وأن القاضي فتح الدين ابن عبد الظاهر هو أول كاتب سر في الدولة التركية وفي غيرها ، فمن قبل كان صاحب ديوان الإنشاء مرجعه إلى الوزير . فالوزير هو الذي كان يقوم بقراءة القصص على السلطان ويوقع عليها بما يراه السلطان في شأنها ، ثم يترك أمر تنفيذ ذلك إلى صاحب ديوان الإنشاء . والوزير هو الذي كان يتلقى الأمور عن الخلفاء والسلاطين ثم ينقلها إلى صاحب ديوان الإنشاء فيتولى تنفيذ المكاتبات الخاصة بها . وأما الآن فكاتب السر هو الذي يقوم بقراءة القصص والكتب على السلطان وهو الذي يتلقى المرسوم منه شفاهاً .

---

١ ـ أبو اياس : بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الاول ، ص ١٢٣

٢ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٣٢٤ .

ـ النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص ٣٣٤ .

وما لبثت أن ازدادت أهمية وظيفة كتابة السر على طول امتداد تاريخ الدولة المملوكية . فسنرى كيف ازدادت اختصاصات كاتب السر شيئاً فشيئاً وكيف ارتفعت رتبته حتّى تقدمت رتبة الوزير وأصبحت الأولى بين أرباب الوظائف الديوانية ، بل سنرى كيف فاق نفوذه نفوذ أكبر مقدمي الألوف من أصحاب الوظائف بالحضرة السلطانية ، وأصبح ، وخاصة إذا كان ذا حظوة لدى السلطان ، أعظم أهل الدولة وصاحب الحل والعقد بها .

وقد صاحب ارتفاع رتبة كاتب السر وازدياد اختصاصاته على النحو الذي أشرنا إليه امتداد سلطانه على دواوين الإنشاء بمصر والشام . فالدولة المملوكية كانت تشتمل فيما عدا مصر ، على تسع ممالك أو نيابات ، سبعة منها بالشام وهي الممالك الشامية(١) ، والحلبية ، والطرابلسية ، والحموية ، والصفدية ، والغزاوية ، والكركية ، والثامنة هي مملكة ملطية التي كانت تعرف أيضاً بمملكة سيس ، والتاسعة هي نيابة الإسكندرية التي كانت نيابة مستقلة .

وكان يوجد في كل مملكة من هذه الممالك أو في كل نيابة منها ديوان إنشاء . وحيث أن سلطان كاتب السر امتد إلى دواوين الإنشاء بهذه الممالك فقد أصبح لقبه الرسمي « صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الشريفة الإسلامية » .

كما استتبع الأمر تحديد لقب متولي ديوان الإنشاء في كل مملكة من هذه الممالك حسب أهميتها . ومتولي ديوان الإنشاء بحلب كان يسمى صاحب ديوان المكاتبات بحلب ، ثم أصبح يطلق عليه منذ منتصف القرن التاسع الهجري على وجه التقريب صاحب ديوان الإنشاء بحلب(٢) . ومتولو

---

١ ـ المقصود بالملكة الشامية مملكة دمشق ، وقد عرفت بهذا الاسم باعتبارها اكبر ممالك الشام .
٢ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٤٨ ب .

دواوين الإنشاء بطرابلس وحماه وصفد كان يسمى كل منهم صاحب ديوان المكاتبات . وأما النيابات الصغرى ، وهي ملطية وغزه والكرك والاسكندرية ، فقد كان يتولى ديوان المكاتبات في كل منها كاتب درج . وكاتب الدرج في هذه النيابات يسمى بكاتب الإنشاء إن كان ممن يتولون الإنشاء بالديار المصرية(١) .

ونظراً لما اشتهر في العرف ، في الدولة المملوكية ، من أن لفظ ناظر الديوان أعلى في الرتبة من لفظ صاحب الديوان ، فقد أصبح اللقب المفضل لكاتب السر هو « ناظر دواوين الإنشاء بالممالك الشريفة الإسلامية » . وبالتالي أصبح كل واحد من مرؤسيه بدواوين الإنشاء يفضل أن يلقب بناظر ديوان الإنشاء أو ناظر ديوان المكاتبات بدلا من صاحب ديوان الإنشاء أو صاحب ديوان المكاتبات(٢) .

كما عرف كاتب السر عند العامة باسم كاتم السر ، وهي تسمية صحيحة كما يقول القلقشندي ، أما لأنه يكتم سر الملك ، أو من باب إبدال الباء بالميم على لغة ربيعة(٣) .

---

١ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٠٣ـ١٠٤ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١ .
ـ زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٤ـ١٣٥ (يذكر غرس الدين خليل ابن شاهين من باب التجاوز أنه يوجد بكل مملكة من هـــذه الممالك كاتب سر) .
٢ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٦ .
٣ ـ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٠٣ .
ـ زبدة كشف الممالك ، ص ٩٨ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١ .



(الباب الثالث)

رتبة كاتب السِّر

- دراسة من واقع النظم •
- دراسة من واقع الاحداث السياسية •

رتبة كاتب السّر

(دراسة من واقع النظم)

مضى زمن طويل من حياة الدولة المملوكية قبل أن تستقر نظم الحكم الخاصة بها وتأخذ صورتها النهائية ، فقد استغرق ذلك الفترة الممتدة من بداية قيام الدولة في منتصف القرن السابع الهجري حتى مطلع القرن التاسع الهجري . وفي هذه الصفحات التالية سنتبع تطور نظم الحكم الخاصة بهذه الفترة ، وعلى وجه التخصيص ما كان منها متعلقاً بوظيفة كتابة السر ، وبالوظائف الأخرى المتصلة بها .

ومن هذه الوظائف التي ارتبط تطويرها بمصير كتابة السر ، وظيفة الوزارة ووظيفة الدوادارية الكبرى ، وكتابة السر هي الوظيفة التالية للوزارة في ترتيب هذه الوظائف . وسنرى في هذه الدراسة كيف استقل كاتب السر عن الوزير ، وكيف استفاد من كل انخفاض في رتبته ومن كل انكماش في اختصاصاته ، حتى أصبح كاتب السر على رأس أصحاب الوظائف من أرباب الأقلام ، وأصبح الوزير يتأخر في الترتيب بعده مراتب .

والدوادار الكبير هو أحد الأمراء الكبار وأحد أصحاب الوظائف من أرباب السيوف بالحضرة السلطانية ، وكان بمثابة الأمين التنفيذي Executive Secretary للبلاط المملوكي(١) . وسنرى أيضاً في هذه الدراسة كيف استطاع كاتب السر أن ينتزع منه أهم اختصاصاته ، وهي الاشراف

---

١ ــ عن الدوادار الكبير واختصاصاته ، انظر بعد ، ص ٦٠ وما يليها

على البريد . وبذلك تكون قد تجمعت في يد كاتب السر كل أسباب السلطة المستمدة من السلطان مباشرة .

وإذا ما تركنا هذه الدراسة النظرية الخاصة بنظم الحكم إلى ميدان التطبيق العملي ، أي إلى ميدان الأحداث السياسية فسنرى كيف أن كاتب السر ، بمقتضى هذه الاختصاصات الخطيرة التي أصبحت موكولة إليه ، أصبح أعظم أهل الدولة والقائم بتدبير أمورها .

• • •

فإذا ما تتبعنا خطوات تطوير نظم الحكم المملوكية لوجدنا أن أولى هذه الخطوات هي التي اتخذها الظاهر بيبرس بإنشائه وظيفة نيابة السلطنة ، وبمقتضى ذلك الوضع تقدمت النيابة على رتبة الوزارة ، أو على حد قول المعاصرين ، تأخرت الوزارة وانحطت بنيابة السلطنة(١) . وذلك أن معظم اختصاصات الوزير انتقلت إلى نائب السلطان ، فهو الذي كان يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ، وكان السلطان يراجعه في أمور الجند والمال والبريد وترتيب الوظائف ، إلا ما كان منها خاصاً بالوظائف الكبرى كالوزارة والقضاء وكتابة السر وتعيين الأمراء ، وفضلا عن ذلك فإنه كان يجلس جلوساً عاماً للناس . ويحضر مجلسه أرباب الوظائف وينظر في القصص ويفصل فيها ، فإن كان مرسومه يكفي فيها أصدره عنه ، وإن كان الأمر يتطلب إصدار مرسوم من السلطان أمر بكتابته عن السلطان وأصدره مع التنبيه على أنه صدر بإشارته(٢) .

---

١ ــ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٣ (الوزارة) .
ــ المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٥ أ ، ب .
٢ ــ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٤ــ٢١٥ (نيابة السلطنة) .

هذا وقد تعرضت الوزارة لهزة أخرى في عهد المنصور قلاوون وعهد ابنه الأشرف خليل كما سبق أن رأينا ، ففي عهد المنصور قلاو ون انفرد كاتب السر بديوان الإنشاء ولم يعد مرجعه إلى الوزير ، كما تقدم عليه في قراءة القصص والكتب الواردة في حضرة السلطان . وفي عهد ابنه الإشرف خليل تأكد استقلاله عن الوزير وانفراده دونه بكتابة المكاتبات التي تصدر عن السلطان ، واختصاصه دونه بأسرار السلطان وأسرار الدولة(١) .

وفي سنة ٧٣٧ هـ قام الناصر محمد بن قلاوون بإصلاح إداري مهم ، ترتب عليه ازدياد اختصاصات كاتب السر وبالتالي ازدياد أهميته وخطورة منصبه . ففي ذلك العام ألغى الناصر محمد وظيفة نائب السلطنة ، كما ألغى وظيفة الوزارة ، إلا أنه في نفس الوقت أنشأ وظيفة جديدة هي ناظر الخاص . وأما ما كان للوزير من اختصاصات فقد وزع بين أصحاب الوظائف الثلاث التالية : ناظر المال ، وناظر الخاص ، وكاتب السر .

* فناظر المال ، الذي عرف أيضاً بناظر النظـــار وناظر الدولة آلت إليه اختصاصات الوزير المالية ، فهو الذي أصبح يقوم بتحصيل الأموال وصرفها في النفقات والكلف . فلما أعيدت الوزارة فيما بعد اقتصرت اختصاصات الوزير على هذه الناحية المالية فقط ، وأصبحت رتبة ناظر المال تلي رتبة الوزير(٢) .

* وناظر الخاص أصبح له التكلم على جميع الخواص الشريفة وجهاتها . وأصبح ديوان الخواص الشريفة من أجلّ الدواوين وأعلاها ، وتتبعه جهات عديدة يقوم ناظر الخاص بالإشراف على جمع الأموال منها ، ثم إنفاق هذه الأموال في أمور معينة عدّدها لنا الكتاب . كما أصبح لناظر الخاص التحدث

---

١ ـ انظـر قبل ،

٢ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٤ (انظر الدولة) .

في الخزانة السلطانية ، وكانت بقلعة الجبل . وموجز القول فقد آل إلى ناظر الخاص مكانة الوزير لقربه من السلطان(١) .

* وأما كاتب السر فإنه أصبح – على قول المقريزي – يوقع في دار العدل ما كان يوقع فيه الوزير بمشاورة واستقلال(٢) . وفي موضع آخر من خططه يزيد الأمر إيضاحاً بقوله :

« وكان موضوع كتابة السر في الدولة التركية (المملوكية) على ما استقر عليه الأمر في أيام الناصر محمد بن قلاوون أن لمتوليها المسمى بكاتب السر ، وبصاحب ديوان الإنشاء ، – ومن الناس من يقول ناظر ديوان الإنشاء – ، قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها ، أما بخطه أو بخط كتّاب الدست أو كتّاب الدرج بحسب الحال . وله تسفير الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها ، وله تصريف المراسيم وروداً وصدوراً ، وله الجلوس بين يدي السلطان بدار العدل لقراءة القصص والتوقيع عليها بخطه في المجلس ، فصار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة . وصار إليه التحدث في مجلس السلطان عند عقد المشورة وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم ، وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب إليه عند الاختلاف أو التدبير . وإليه ترجع أمور القضاء ومشايخ العلم ونحوهم في سائر المملكة مصراً وشاماً . فيمضي من أمورهم ما أحب ويشاور السلطان فيما لا بد من مشورته فيه . . . . . وصار متولي رتبة كتابة السر أعظم أهل الدولة ، إلا أنه في الدولة التركية يكون معه من الأمراء واحد يقال له الدوادار ، منزلته منزلة صاحب البريد

---

١ – الخطط ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٧ .
– زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٧–١٠٨ .
– المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٥ ب ، ١٣٦ أ .
٢ – الخطط ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٣ .

في الزمن الأول ومنزلة كاتب السر منزلة صاحب ديوان الإنشاء ، إلا أنه يتميز بالتوقيع على القصص تارة بمراجعة السلطان ، وتارة بغير مراجعة . ولذلك يحتاج إليه سائر أهل الدولة من أرباب السيوف والأقلام ، ولا يستغني عن حسن سفارته نائب الشام فمن دونه(١) » .

حقاً لقد كان الدوادار (معناه حامل الدواة أو الموكل بدواة السلطان) حتّى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، بل حتّى عهد الناصر حسن(٢) بمنزلة صاحب البريد في الزمن الأول بالنسبة لصاحب ديوان الإنشاء .

فقد كان الدوادارية ، منذ بداية الدولة المملوكية حتّى ذلك الحين أمراء صغار ، بل كان بعضهم من آحاد الأجناد ، وكلهم كانوا في خدمة كاتب السر ، وكانت مهمتهم تنحصر في المشاورة على من يحضر إلى باب السلطان وإبلاغ عامة الأمور إليه ، وإبلاغ الرسائل عن السلطان ، وتقديم القصص إليه وحمل الدواة له ليوقع عليها وعلى عامة المنشورات والتواقيع(٣) والكتب ، وإبلاغ كاتب السر برسالة السلطان وما يرسم لمن « يركب البريد في المهمات السلطانية ، ليأمر كاتب السر أحد الكتّاب بكتابة المرسوم اللازم ، أو أن يكتب ورقة بخطه إلى أمير آخور البريد بالاسطبلات السلطانية(٤) بما تبرز

---

١ - الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .
- كان نائب الشام بعد أن ألغيت وظيفة نيابة السلطنة ، هو الذى يلى السلطان فى الرتبة .

٢ - تولى الناصر حسن السلطنة للمرة الاولى من سنة ٧٤٨ حتى سنة ٧٥٢هـ ، والمرة الثانية من سنة ٧٥٥ حتى سنة ٧٦٢هـ .

٣ - عن المناشير والتواقيع انظر فيما بعد الباب الرابع ، ص ١١١ .

٤ - كانت مهمتــه أن يزود البريدية بالخيــل الــلازمة لاداء مهمتهم وتوصيل رسالتهم ، وذلك حسب تعليمات كاتب السر ، انظـــر حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ، الجزء الاول ، ص ١٧٤-١٨١ (أمير آخور) ، ص ١٨٢ . (أمير آخور البريد) .

به الرسالة من الخيل ، ويعين اسم البريدي الذي كلف بالخروج بالرسالة في آخر الكتاب ، ويكتب له ورقة بأن يتوجه إلى جهة قصده وعوده(١) .

وظلت وظيفة الدوادارية أميرها لا يتعدى امرة الطبلخاناه(٢) إلى أن وليها في أيام السلطان الناصر حسن أحد أمراء المئين طغيتمر النجمي(٣) . وفي عهد السلطان الأشرف حسين بن محمد بن قلاوون(٤) وليها الأمير اقتمر الحنبلي ، أحد الأمراء المئين ، وكان عظيماً في الدولة فصار يخرج المراسيم السلطانية بغير مشاورة كما يخرج نائب السلطنة ، ويعين في المرسوم إذ ذاك أنه كتب برسالته . ولما نقل الأمير اقتصر إلى نيابة السلطنة – وكانت قد عادت بعد وفاة الناصر محمد(٥) – أقام الأشرف شعبان عوضه في وظيفة الدوادارية الكبرى الأمير طاش تمر وجعله من أكبر أمراء الألوف . كما اقتدى به الظاهر برقوق وجعل الأمير يونس الدوادار من أكبر أمراء الألوف فعظمت منزلته وقويت مهابته ، وفي الفترة الثانية من سلطنة الظاهر برقوق (٧٩٢م – ٨٠ ه) ارتفعت منزلة الدوادارية الكبرى عن ذي قبل بعد أن وليها الأمير يوطا الذي أطلقت يده فتصرف كتصرف نواب السلطنة وولى وعزل وحكم في القضايا المعضلة ، فصار ذلك من بعده عادة لمن ولي الدوادارية ، سيما لمـا ولى الأمير يشبك الأمير جكم الدوادارية في أيام

---

١ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١١٤ .
الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٢ .
٢ ـ أمير طبلخاناه هى المرتبة التالية من مراتب ارباب السيوف بعد أمير مائة مقدم ألف ، ويعرف أيضا باسم أمير أربعين اذا كان له الحق فى أن يكون فى خدمته أربعين مملوكا ، قد يزادوا الى سبعين أو ثمانين (عاشور : العصر المماليكى ، ص ٣٩٢) .
٣ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٥ أ .
٤ ـ تولى السلطنة من سنة ٧٦٤ حتى سنة ٧٧٨هـ .
٥ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١٥ .

الناصر فرج . فإنهما تحكما في جليل أمور الدولة وحقيرهامن المال والبريد والعزل والولاية . وقد استمر الدوادار الكبيريتمتع بكل هذه السلطات بقية سنوات حكم الناصر فرج وكذلك طوال سنوات حكم المؤيد شيخ(١) .

فإذا ما عرفنا ازدياد مكانة الدوادارالكبير وازدياد سلطانه على هذا النحو ، فإنه يهمنا أن نعرف مدى أثر ذلك على مكانة كاتب السر وما استقر عليه الأمر بينهما في تصريفهما لما يختصان به من شئون الدولة . وفي هذا الصدد يذكر لنا القلقشندي أنه لما عظم أمر الدوادارية استقر عند الدوادار كاتب من كتّاب الدست(٢) أصبح هو الذي يعلق عنه الرسالة ثم يبعثها صحبة أحد البريدية إلى كاتب السر الذي يأمر بأن تخلد(٣) الرسالة بديوانه عند دواداره (دوادار كاتب السر أو دوادار الديوان) (٤) وفي جملة

---

١ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٢ـ٢٢٣ ٠

ـ يذكر ابن تغرى بردى أن أول من عين فى وظيفة الدوادارية الكبرى من أمراء المئين هو الامير ايدمر الشامى فى سنة ٧٦٨هـ وفى موضع آخر من كتابه النجوم الزاهرة يذكر انه الامير طاش تمر العلائى الذى كان يشغل وظيفة الدوادارية فى سنة ٧٧٧هـ وهو أمير طلبخاناه ، ثم رقى فى السنة التالية الى وظيفة الدوادارية الكبرى والى رتبة مائة مقدم ألف ـ انظر :

— W. POPPER : Egypt and Syria under the circassian Sultans (1382 - 1468. A. D), p. 92, no. 6.

٢ ـ فى العصر المملوكى كان كتّاب بالدست يلون فى الرتبة كاتب السر او نائب كاتب السر ان كان ثمة نائب ـ انظر بعد ص ١٢٤ وما يليها ٠

٣ ـ أى تحفظ وهو الاصطلاح الذى جرى فى العصر الاسلامى ـ انظر بعد ص ١٣٤ ٠

٤ ـ دوادارية كاتب السر أو دوادار الديوان هو الذى أصبح يقوم بمهمة الخازن بديوان الانشاء فى العصر المملوكى ـ انظر بعد ص ١٢٩ ٠

أضابير الديوان ، كما يأمر بتزيلها(١) للعمل بمقتضاها (٢) .

وفي موضع آخر من كتاب صبح الأعشى يزيد الأمر إيضاحاً فيذكر أن العادة جرت في بداية عصر المماليك أن السلطان إذا أمر بكتابة شيء نقل هذه الرغبة أحد البريدية ، فيحمل هذا الرسالة إلى كاتب السر فيحيلها بدوره إلى من يكتب المرسوم اللازم من كتّاب الإنشاء .

ثم حدث في عهد الناصر محمد بن قلاوون أن أفرد لإحالة الرسالة أو تعليقها كاتباً من كتّاب الإنشاء قبل رفعها إلى كاتب السر . واستمر ذلك إلى أن شغل وظيفة الدوادار الكبير يونس النوروزي وكان كاتبه هو فتح الدين بن شماس أحد كتاب الدست ، فإذن كاتب السر لهذا الكاتب في تعليق الرسالة عن الأمير يونس على ظهور القصص وغيرها . وكان يكتب على حواش القصص في وسط القصة ما مثاله « رسم برسالة الجناب العالي الأميري الكبير الشرفي يونس الدوادار الظاهري — ضاعف الله نعمته — أن يكتب مثال(٣) شريف بكذا أو توقيع شريف بكذا . » ثم تحمل إلى كاتب السر ، فيحيلها إلى كاتب من كتّاب الإنشاء فيكتب بمقتضاها(٤) .

وإذا ما ورد أحد البريدية برسالة أحضره أمير جاندار(٥) ، وهو أحد

---

١ — أى اثباتها فى دفاتر الديوان — انظر بعد ، ص ١٢٤ .

٢ — صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١١٥ .

٣ — المثال هو أول ما يكتب من الاوراق الرسمية ايذانا باعطاء أحد المماليك اقطاعا من الاقطاعات الخالية (انظر عاشور : العصر المماليكى ص ٤٤٦) .

٤ — صبح الاعشى ، الجزء السادس ، ص ٢٠٩—٢١٠ .

٥ — أى الامير الممسك للروح (من كلمة أمير العربية ، وجان الفارسية والتركية ومعناها الروح ، ودار الفارسية ومعناها ممسك) وكانت مهمته فى عصر المماليك الاشراف على من يأمر السلطان باعتقاله =

أمراء الألوف ، والدوادار الكبير وكاتب السر بين يدي السلطان ، فيقبل الأرض ثم يأخذ الدوادار الكبير الكتاب فيمسحه بوجه البريدي ، ثم يناوله للسلطان فيقضه ، ويسلمه إلى كاتب السر ليقرأه عليه سراً.. فإن كان أحد الأمراء حاضراً تنحى حتى يفرغ من القراءة ويأمر السلطان فيه بأمر(١) .

وإذا ما وردت بطاقة على جناح الحمام الرسائلي ، واستقر الطائر في البرج المخصص له ، أخذ البراج الطائر والبطاقة في جناحه وأحضره بين يدي الدوادار فيعرض عليه . فيقوم الدوادار بوضع البطاقة عن جناح الطائر بيده ، فإن كان الأمر الذي حضرت البطاقة بسببه خفيفاً لا يحتاج إل مطالعة السلطان به استقل الدوادارية ، وإن كان مهماً يحتاج إلى إعلام السلطان به استدعى كاتب السر ليقوم بقراءة البطاقة على السلطان كما يفعل في المكاتبات الواردة . وكانت العادة قد جرت أن يطالع نواب المملكة السلطان بما يجد عندهم ، تارة على أيدي البريدية وتارة على أجنحة الحمام ، فتعود إليهم الأجوبة السلطانية وعليها العلامة (أي توقيع السلطان) (٢) .

ومما كان يحضر إلى القصر السلطاني بالقلعة في كل يوم ورقة الصباح يرفعها والي القاهرة ووالي مصر ، وتشتمل على أنها ء ما جد في كل يوم

= وتولى تنفيذ العقوبة والقتل حسبما يأمر به السلطان ٠ ومن مهامه أيضا حراسة السلطان فى حالة خروجه والطواف حوله فى سفره صباحا ومساء ــ انظر حسن الباشا : المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ١٩٥ــ١٩٨ ٠

١ ــ صبح الاعشى ، الجزء الرابع ، ص ٥٩ ٠
ــ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١١ ٠

٢ ــ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١١٨ــ١١٩ ، الجزء الرابع ، ص ٦٠ ٠
ــ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١١ ٠
ــ عن العلامة السلطانية انظر بعد ، الباب الثالث ، ص ٦٠، ١٣٢ــ١٣٣ ٠

وليلة بحارات البلدين وأخطاطهما من حريق أو قتل قتيل أو سرقة سارق ، ونحو ذلك ليأمر السلطان فيه بأمره(١) .

وكان من الطبيعي أن يصحب ازدياد منزلة الدوادار الكبير – على هذا النحو ازدياد عدد أتباعه من الدوادارية الذين يعاونونه في تنفيذ مهامه . فأصبح يليه في الدوادارية الكبرى دوادار ثان ، كان ترتيبه الثاني بين أصحاب الوظائف التي يقتضي أن يكون بها أحد أمراء الطلبخانات ، ثم دوادار ثالث كان ترتيبه الأول بين أصحاب الوظائف التي يقتضي أن يكون بها أحد أمراء العشرينات أو العشرات(٢) ، ثم يليه عدد من الدودارية كانوا يختارون من بين المماليك الخاصكية وهم خاصة السلطان(٣) . وقد تضخم عدد هؤلاء الدوادارية في عهد الناصر فرج فبلغوا نحو ثمانين دواداراً(٤) ، غير أن عددهم ما لبث أن نقص واستقر في حدود العشرة زيادة ونقصاناً(٥) .

هذا وقد أجمل لنا المؤرخون اختصاصات الدوادار الكبير ، كما تحددت آخر الأمر ، على النحو الآتي ، (الدوادار الكبير هو الذي يبلغ الرسالة

---

١ – الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١١ .

٢ – اى الامراء الذين يحق لهم أن يكون فى خدمة كل منهم عشرون مملوكا أو عشرة مماليك .

٣ – زبدة كشف الممالك ، ص ١١٤–١١٥،١١٥،١١٦ .
– المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٥ أ ، ١٢٧ أ،ب .

٤ – النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٤٢٩ – ٤٣٠ (كانوا فى عهد الناصر فرج نحو ثمانين دوادارا فما زال بهم المؤيد حتى جعلهم ستة) .

٥ – زبدة كشف الممالك ، ص ١١٦ (عشرة فى عهد الاشرف برسباى)
– حوادث الدهور ، طبعة كاليفورنيا ، ص ١٧٨ ، ٣٩٩ – بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الثانى ، ص ٤١ (بلغوا العشرين فى عهد الاشرف اينال والظاهر خشقدم) .
– المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٥ أ (الدوادار الكبير له اتباع دونه عددهم عشرة) .

وعامة الأمور عن السلطان ، ويقدم القصص ويناول العلامة ، ويشاور على من يحضر إلى سلطانه وعلى الأمور المهمة ، وكان يكتب على القصص إشارته بالاقطاعات مثل كتابة ناظر الجيش عليها بالكشف ، وكان يخرج التواقيع والمراسيم بالوظائف الجليلة ، ويعلق الرسالة لاستخراج الأمثلة بما يراه ، ويتحدث على الاقطاعات والرزق وعلى الأحباس) (١) .

ونظراً لخطورة هذه الاختصاصات فإن الدوادار الكبير كان يقوم بحلف يمين الولاء للسلطان عند تعيينه في وظيفته . وقد أورد لنا المؤرخون نسخة اليمين التي يقوم بأدائها ، وهذا نصها : « وإنني مهما أطلعت عليه من مصالح مولانا السلطان (فلان) ، ونصائحه وأمروا في ملكه ونازحه أوصله إليه وأعرضه عليه ولا أخفيه شيئاً منه ولو كان على ولا أكتمه ولو خفت وصول ضرره إلى . وإني لا أودي عن مولانا السلطان رسالته في إطلاق مال ولا استخدام ولا استقطاع إقطاع ولا ترتيب مرتب ولا تجديد مستجد ولا سداد شاغر ولا فصل منازعة ولا كتابة توقيع ولا مرسوم ولا كتاب صغيراً كان أو كبيراً ، إلا بعد عرضه على مولانا السلطان (فلان) ومشاورته ومعاودة أمره الشريف ومراجعته » (٢) .

ومن هذا يتضح لنا أهمية الدوادار الكبير وخطورة مركزه بعد أن أصبح أحد أكابر أمراء المئين وأحد أصحاب الوظائف الكبرى من أرباب السيوف بالحضرة السلطانية ، وبعد أن ازداد عدد أعوانه من الدوادارية . ويمكن أن يقال أنه كان بمثابة «الأمين العام التنفيذي executive secretary » لمقر السلطنة فعن طريقه كان السلطان يحاط علماً بكل ما يجرى في دولته ، وهو الذي

---

١ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٢٥ .

٢ ـ التثقيف ، ورقة ٨٥ ب (الفقرة الاولى من نص اليمين توجد أيضا فى نص اليمين الذى يحلفه كاتب السر ، وأما الفقرة الثانية من نص اليمين فينفرد بها الدوادار الكبير .

يناط إليه مهمة تنفيذ كل ما يصدر عن السلطان ويشير به(١) . ولذلك فإن رتبة الدوادار الكبير كانت أعلى من رتبة كاتب السر ، بل ان كاتب السر – على قول ابن خلدون – كان مرؤوساً له وتابعاً له(٢) – أو على قول المقريزي – كان منتمياً إليه(٣) .

• • •

فالدوادار الكبير يستمد سلطانه على كاتب السر من إشرافه على البريد . فعن طريق أحد البريدية يبلغ الدوادار الكبير الرسالة عن السلطان إلى كاتب السر ، وهو أول من يطلع على ما يحمله البريدية من رسائل أو ما يحمله الحمام الرسائلي من بطائق فيقرر فيه ما يراه ، أو يقوم بإبلاغه إلى السلطان – إذا اقتضى الأمر ذلك – فيأمر فيه بما يراه .

وما من شك أن سلطات الدوادار الكبير واختصاصاته هذه كانت تكتسب طابعاً أقوى إذا ما كان ذا حظوة لدى السلطان أوأثيراً لديه . بل إن الأمر على هذه الصورة يعتبر على جانب كبير من الخطورة لأن الدوادار الكبير هو أحد أمراء المئين من أصحاب الوظائف الكبرى بالحضرة السلطانية ، وهو بهذه الصفة يعتبر أحد الأمراء المنافسين للسلطان والمتطلعين إلى عرش السلطنة .

وقد اكتسبت وظيفة الدوادارية الكبرى هذه الأهمية وهذه الخطورة ممثلة في شخص الأمير يونس الدوادار الظاهري في بداية سلطنة برقوق ، إذ أنه كان من أكثر الأمراء تمكناً من السلطان(٤) .

---

١ – — W. POPPER : Op. Cit, p. 92, No. 6.
— GAUDEFROY - DEMOMPYNES : La Syrie, p. LXII - LXIII.

٢ – حسن الباشا : المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ص ٥٢١ .

٣ – الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٧٧–٧٨ .

٤ – الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٧٧ .

وشاءت ارادة الله أن ينافسه في هذه الحظوة كاتب السر أو حد الدين عبد الواحد الحنفي الذي عينه الظاهر برقوق بعد عدة أيام من توليه عرش السلطنة خلفاً لكاتب السر بدر الدين محمد بن علي بن فضل الله . فقد اتصلت حياة أوحد الدين بحياة برقوق عندما كان موقعاً للحكم في أيام السلطان الأشرف شعبان بن حسين ، وكان برقوق وقتها أحد الأمراء الصغار وعرضت له قضية أمامه تختص بإرث أمير مات دون أن يترك ولداً وادّعى برقوق أنه من بني عمومته . وقد مكنه أوحد الدين من إثبات قرابته للمتوفى ثم حكم له بحقه في هذا الإرث ، ومن وقتها أخذت الصلة تتوثق بينهما . فلما قتل الأشرف شعبان بن حسين في شهر ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ ، ونجح برقوق في أن يلعب في الفترة التي أعقبت ذلك دوراً هاماً رفعه إلى مرتبة الأمير أخورية الكبرى ، أراد برقوق أن يرد الصنيع إلى أوحد الدين فأقامه موقعاً له .

وما زال أمر برقوق يزداد قوة حتى أنبطت به أمور المملكة كلها ، فصار أوحد الدين صاحب الحل والعقد ، وأصبح هو المتصرف في شؤون كتابة السر . وما أن تولى برقوق عرش السلطنة في شهر رمضان سنة ٧٨٤ هـ حتى بادر بعد بضعة أيام إلى تعيين أوحد الدين كاتباً للسر عوضاً عن ابن فضل الله ، فباشر – كما يقول المقريزي – كتابة السر على القالب الجائز وضبط الأمور أحسن ضبط وعكف سائر الناس على بابه لتمكنه من سلطانه .

ومن ثم كان لا بد أن يحدث صراع خفي بين كاتب السر أوحد الدين والدوادار الكبير يونس الظاهري حول الإشراف على البريد لكي ينفرد أحدهما بالمكانة الأولى لدى السلطان ويصبح صاحب السلطة الذي لا ينازعه أحد . وفي هذا الصراع كان الانتصار لأوحد الدين ، فقد استطاع بمهارته السياسية أن يثير شكوك السلطان برقوق شيئاً فشيئاً بالنسبة للأمير يونس الدوادار . فأسر إلى السلطان بأنه يرسم بكتابة مهمات الدولة وأسرار المملكة

إلى أمراء الشام وغيرهم ، وأنه يريد منه أن يطلعه على مهمات السلطان وأسراره ، وأنه لا يستطيع دفعه عن ذلك لأن طائفة البريدية في خدمته . فإذا اقتضت آراء السلطان تسفير أحد من البريدية في مهم يحتاج كاتب السر إلى استدعائه من خدمة الدوادار الكبير ، فإذا التمس منه أن يخبره بالمعنى الذي يتوجه فيه البريدي فإنه لا يستطيع إعلامه بذلك ، وفي نفس الوقت لا يأمن على نفسه إن كتم الأمر عنه .

وعلى هذا النحو نجح أوحد الدين في أن يثير مخاوف السلطان من إشراف الدوادار الكبير على البريد ، وأن يجعله آخر الأمر يأمر بأن يكون الإشراف على البريد من اختصاص كاتب السر وأن يكون البريدية في خدمته . وبذلك أصبح أوحد الدين المتصرف وحده في أمور الدولة مع سلطانه ، فانفرد بالكلمة وخضع له الخاص والعام(١) .

ومنذ ذلك الوقت استقر الأمر على أن أوراق البريد لا يكتبها أحد إلا كاتب السر بيده ، أو يكتبها نائبه إذا كان متغيباً ، وذلك عندما تبرز المراسيم السلطانية بتوجيه أحد من البريدية في مهم شريف(٢) . وكانت أوراق البريد قبل ذلك يكتبها اما كاتب السر أو الدوادار الكبير أو نائب السلطنة إن كان ثم نائب للسلطنة(٣) .

ولذلك فإن القلقشندي والمقريزي والخالدي في حديثهم عن اختصاصات كاتب السر ذكروا من بينها النظر في أمر البريد ومتعلقاته ، والنظر في أمر أبراج الحمام ومتعلقاته(٤) .

---

١ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٧٧ـ٧٨ .
— WIET : Les Secretaires de La Chancellerie en Egypte sous Les Sultans Circassiens, No. II, p. 2-3.

٢ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٦ ا .

٣ ـ التثقيف ، ورقة ٥٩ ب ، ٦٠ ا .

٤ ـ عن القلقشندى والخالدى ، انظر بعد اختصاصات كاتب السر .
ـ عن المقريزى ، انظر الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١١ .

وفي عهد برقوق حدث إصلاح إداري ثان مثل الإصلاح الإداري الذي حدث في سنة ٧٣٧ هـ في عهد الناصر محمد بن قلاوون . وترتب على هذا الإصلاح إنخفاض رتبة الوزارة أكثر من ذي قبل ، وهو ما استفادت منه كتابة السر .

وكانت الوزارة ، على الرغم مما تعرضت له من انخفاض رتبتها وانكماش اختصاصاتها لا تزال تعتبر من الناحية الرسمية الوظيفة الأولى من حيث الرتبة بين أصحاب الوظائف من أرباب الأقلام بالدولة(١) . غير أنها نتيجة لهذا الإصلاح الإداري الثاني زال ما كان لها من رتبة وانتقلت إلى كاتب السر الذي أصبح يجلس في مجلس السلطان فوق الوزير .

ومما دفع برقوق إلى القيام بهذا الإصلاح الإداري ازدياد عدد مماليكه الخاصة إلى حد كبير ، فقد بلغوا خمسة آلاف مملوك . وكان عليه أن يدبر لهذا العدد الكبير من المماليك أمر النفقة عليهم ودفع جوامكهم ، ومن ثم كان إنشاء ديوان المفرد الذي عهد به إلى الاستادار(٢) الكبير ، الذي أصبح منذ ذلك الوقت من أهم الشخصيات في عصر المماليك الجراكسة .

فقد أفرد برقوق إقطاعه لما كان أميراً قبل سلطنته وجعل له ديواناً سماه الديوان المفرد . ثم أضاف إلى هذا الديوان كثيراً من أعمال الديار المصرية ، وعهد بهذا الديوان إلى الاستادار الكبير ليصرف ما يتحصل منه في النفقة

---

١ ـ صبح الاعشى : الجزء الرابع ص ٢٩ـ٣٠ (وهى اجل الوظائف وأرفعها رتبة فى الحقيقة لو لم تخرج عن موضوعها ويعدل بها الى قاعدتها) .
ـ زبدة كشف الممالك ، ص ٩٣ـ٩٨ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٥ ا،ب .

٢ ـ أى أستاذ الدار وهو الرأى الغالب فى تفسير أصل هذه الكلمة ـ فيما يختص بأصل هذه الكلمة واختصاصات الاستادار ـ انظر حسن الباشا ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٣٩ـ٥٨ .

على مماليكه وفي جوامكهم ـ ونتيجة لذلك انكمشت اختصاصات الوزير ، وكانت قد اقتصرت منذ الإصلاح الإداري الأول الذي قام به الناصر محمد علي مجرد النظر في المال ، كما انكمشت أيضاً اختصاصات ناظر الخواص الشريفة .

فأما اختصاصات الوزير فقد اقتصرت على جباية المكوس بتغرقطيا(١) ، وعلى مايرد من البضائع إلى مصر (الفسطاط) والقاهرة براً وبحراً فيما عدا ما يرد خاصاً بالسلطان ، وجباية ما يتحصل من مكوس ببعض الجهات الأخرى ، وما يتحصل ببيت المال من جهات المواريث الحشرية ، ثم انفاق ذلك في صرف مرتب اللحم المخصص للمماليك السلطانية وجرايتهم ، وحوائج المطبخ السلطاني وغير ذلك من المقاصد التي حددها المؤرخون على وجه التفصيل(٢) .

وأما ناظر الخواص الشريفة فقد اقتصرت اختصاصاته على النظر على

---

١ ـ قطية أو قطيا ـ قرية فى طريق مصر الى الشام ، فى وسط الرمل قرب الفرما ، ومكانها فى العصر المملوكى كان مكان بور فؤاد الحالية ، وكان يجبى بها المكس على البضائع الواردة من بلاد الشام الى مصر . ومنذ سنة ٧١٦هـ كانت جباية المكس بقطيا تابعة لديوان الخواص الشريفة ـ انظر :

ـ السلوك ـ طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الاول ، ص ١٥١ حاشية رقم ١ ، الجزء الثانى ، ص ١١٣ .

ـ صبح الاعشى ، الجزء الثالث ، ص ٤٧٠ .

٢ ـ عن ايرادات ديوان الوزارة والجهات التى تصرف فيها انظر :

ـ صبح الاعشى ، الجزء الرابع ، ص ٢٨،٢٩ .

ـ زبدة كشف الممالك ، ص ٩٧ـ٩٨ .

ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٥ أ،ب .

جميع الخواص الشريفة وجهاتها ليصرف ما يتحصل منها في تعلقات الخزانة السلطانية(١) .

وأما الاستادار الكبير فقد كان له التصرف في جهات عديدة تابعة لديوان المفرد وهي بلدان كثيرة ، كما كان له التحدث في الدواوين السلطانية وفي كشف الأقاليم وولاة النواحي وفي كثير من أمور أرباب الوظائف(٢) .

ويهمنا أن نوضح أن الوزارة قد تلاشى ما كان قد بقي لها من نفوذ نتيجة لهذا الإصلاح الإداري . ففي عهد المنصور قلاوون ارتفع اختصاص الوزير عن ديوان الإنشاء بعد إنشاء وظيفة كاتب السر ، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون أبطلت الوزارة وتوزع اختصاصها على ناظر المال وكاتب السر وناظر الخواص الشريفة . ولما أعيد ت بعد ذلك اقتصر اختصاصها على النظر في الأموال ، غير أن هذا الجانب الأكبر من هذا الاختصاص المالي قد رفع عن الوزارة بعد أن أنشأ برقوق ديوان المفرد وعهد به إلى الاستادار الكبير . ويكفي لإبراز مدى تلاشي أمرها أن اختصاصاتها أصبحت مقسمة بين أربعة وهم : كاتب السر ، وناظر الخواص الشريفة ، والاستادار الكبير ، والوزير .

---

١ ـ عن ايرادات ديوان الخواص الشريفة والجهات التى تصرف فيها انظر :
- صبح الاعشى : الجزء الثالث ، ص ٤٥٦ .
- زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٧ـ١٠٩ .
- المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٥ ب ، ١٣٦ أ .

٢ ـ عن ايرادات ديوان المفرد والجهات التى تصرف فيها انظر :
- صبح الاعشى ، الجزء الثالث ، ص ٤٥٧ ، الجزء الرابع ، ص ٢٠ .
- زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٧ .
- المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٦ أ،ب .

ولذلك بطل ما كان للوزير وناظر الخواص وانحطت رتبة الوزارة خاصة وأصبح لا يرتفع قدر متوليها إلا إذا أضيفت إلى الاستادارية الكبرى . أما إذا وليها بمفردها أحد أرباب الأقلام المتعممين فإن أمره لايعدو أن يكون أحد الكتّاب الكبار ، وعليه أن يتردد إلى باب الاستادار الكبير ويتصرف بأمره ونهيه(١) . وتلاشي أمر الوزارة على هذا النحو أدى إلى ازدياد رتبة كتابة السر وازدياد أهميتها لأنها أقرب الوظائف الثلاث الأخرى إليها من حيث المكانة العامة ومن حيث الاختصاصات .

غير أن تطور النظم ، قوة أو ضعفاً ، ارتفاعاً أو انخفاضاً لا يتوقف في كل زمان ومكان على ما تجريه الدولة من اصلاحات وما تصدره من قرارات ، وإنما يتوقف ، في المقام الأول ، على مدى قوة الشخصيات التي تعاصر هذا التطور والتي بيدها أمر التنفيذ . .

فهذا الإصلاح الإداري الذي قام به برقوق في أوائل سلطنته لم يظهر أثره فيما يختص بوظيفة كاتب السر أوحد الدين عبد الواحد الحنفي الذي أشرنا إلى مكانته من برقوق وحظوته لديه،والذي استطاع بمهارته السياسيةأن يلحق بديوانه النظر في أمر البريد ، لم يقدرله البقـــاء مدة طويلة في كتـــابة

---

١ ـ انظـــر :

ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٢ (الاستادار) ، ص ٢٢٣ـ ٢٢٤ الوزارة .

— G. DEMOMPYNES: Op Cit, p. LX, note 4, LXI, LXVI-LXVII, LXXI.

— POLIAK : Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebnon (1250 - 1900), p. 4-5.

— AYALON : Studies on the structure of the Mamluk army, in BSOAS, London 1954, III, p. 61-62.

السّر ، إذ توفي بعد عامين من توليه إياها(١) . وخلفه في كتابة السر بقية سنوات سلطنة الظاهر برقوق شخصيات كانت على قدر كبير من الكفاءة الأدبية التي يتطلبها هذا المنصب . وهذه الشخصيات هي : بدر الدين محمد ابن فضل الله (للمرة الثانية) ، وعلاء الدين علي الكركي ، وبدر الدين محمد ابن فضل الله (للمرة الثالثة) ، وبدر الدين محمود الكلستاني(٢) . غير أن أحداً من هؤلاء الأربعة لم يكن ذا حظوة لدى السلطان ومتمكناً منه مثل كاتب السر أوحد الدين ، كما أنهم جميعاً كانوا يفتقرون إلى المهارة السياسية التي أصبح الأمر يقتضي توفرها فيمن يشغل كتابة السر(٣) .

وبعد أن شغرت كتابة السر بوفاة بدر الدين محمود الكلستاني في شهر جمادي الأولى سنة ٨٠١ هـ عين السلطان برقوق في هذه الوظيفة فتح الدين فتح الله ، وكان فتح الدين يفتقر إلى الكفاءة الأدبية ، إلا أنه كان على قدر كبير من الكفاءة الإدارية والمهارة السياسية ، وهذا ما مكنه من أن يرتفع برتبة كتابة السر أكثر عما كانت عليه وأن يجعل رتبتها تفوق رتبة الوزارة .

وكان فتح الدين فتح الله — وهو أصلا من يهود تبريز — يشغل وظيفة رئيس الأطباء في بيمارستان قلاوون ، وكان قد نجح في أن يختص بالظاهر برقوق اختصاصاً كبيراً . فلما مات بدر الدين محمود الكلستاني ، قلده الظاهر برقوق وظيفة كتابة السر ، فزاد اختصاصه به في الفترة القصيرة

---

١ — تولى كتابة السر فى ٢ شوال ٧٨٤هـ وتركها لوفاته فى ٢ ذى الحجة ٧٨٦هـ ، انظر : — WIET : Op. Cit, p. 2-3

٢ — انظر بعد ، الباب الخامس .

٣ — انظر : — WIET : Op. Cit, No. III, IV, V, VI.
كان علاء الدين على الكركى ذا صلة سابقة ببرقوق ، الا انه لم يكن له مكانة او حد الدين لديه .

التي تبقت من سلطنته لدرجة أن جعله أحد الأوصياء على تركته(١) . وبعد وفاة برقوق نجح فتح الدين فتح الله في أن يحتفظ بكتابة السر في عهد ابنه فرج ، واستطاع بما جبل عليه من مهارة وكياسة أن يتمكن منه أكثر من أبيه . وكانت العادة حتى ذلك الوقت أن يجلس كاتب السر في مجلس السلطان تحت الوزير ، فلما عظم تمكن فتح الدين فتح الله من السلطان جلس فوق الوزير سعد الدين إبراهيم واستمر ذلك لمن بعده(٢) .

وقد نقل لنا كل من المقريزي والقلقشندي وصف جلوس السلطان للنظر في المظالم في الإيوان المعروف بدار العدل والمجلس بالاصطبل السلطاني ، وهذا الوصف وإن كان سابقاً على تقدم رتبة كاتب السر على رتبة الوزير في هذا المجلس إلا أننا نستطيع أن نتبين منه المكانة التي آلت إلى كاتب السر والدور الذي يقوم به في هذا المجلس . يقول المقريزي : « كانت العادة أولا (أي في بداية الدولة التركية) أن يجلس قضاة المذاهب الأربعة عن يمين السلطان ، وأكبرهم الشافعي وهوالذي يلي السلطان ، ثم يليه الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي ، وإلى جانب الحنبلي الوكيل عن بيت المال ثم الناظر في الحسبة

---

١ ـ هو فتح الله بن معتصم بن نفيس الاسرائيلى الداودى العنسانى التبريزى ، ولد بتبريز فى سنة ٧٥٩هـ ، ثم هاجر الى القاهرة بعد أن سبقه فى الهجرة اليها جده وعمه . وفى القاهرة تحول جده وعمه الى الاسلام ، فأما عمه وكان يشتغل بالطب ، فقد نجح فى أن يعين رئيسا للاطباء ببيمارستان قلاوون ، ولما توفى خلفه فى هذه الوظيفة ابن أخيه فتح الله ، وكان قد تحول الى الاسلام بعد هجرته الى القاهرة فى عهد السلطان الناصر حسن انظـــر :
ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٦٢ .
ـ السلوك ، تحقيق عاشور ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٩٣٦ـ٩٣٧ .
— WIET : Op. Cit, No. VII.

٢ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٦ .

بالقاهرة . ويجلس على يسار السلطان كاتب السر وقد امه ناظر الجيش وجماعة الموقعين المعروفين بكتّاب الدست ، وموقعي الدست تكملة حلقة دائرة . فإن كان الوزير من أرباب الأقلام كان بين السلطان وكاتب السر وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف وإن كان نائب السلطنة فإنه يقف مع أرباب الوظائف ويقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره عن السلاحدارية والجمدارية والخاصكية . ويجلس على بعد يقدر بخمسة عشر زراعاً عن يمنته ويسرته ذوو السن والقدر من أكابر أمراء المئين ، ويقال لهم أمراء المشورة . ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية لإعطاء قصص الناس وإحضار الرسل وغيرهم من الشكاة وأصحاب الحوائج والضرورات . فيقرأ كاتب السر وموقعوا الدست القصص على السلطان فإن احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيما يتعلق بالأمور الشرعية والقضايا الدينية ، وما كان متعلقاً بالعسكر . فإن كانت القصص في أمراء الاقطاعات قرأها نظار الجيش فإن احتاج إلى مراجعة في أمر المعسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه ، وما عدا ذلك يأمر فيه السلطان بما يراه » .

وفي أيام الناصر محمد بن قلاوون تغير ترتيب جلوس القضاة ومن يليهم في هذا المجلس . فاستقر الحال على أن يكون عن يمين السلطان قاضيان من القضاة الأربعة وهما الشافعي والمالكي ، وعن يساره الحنفي والحنبلي . ويلي القاضي المالكي من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ، ويليهم مفتو دار العدل على هذا الترتيب ، ويليهم وكيل بيت المال ثم الناظر في الحسبة بالقاهرة — . ويلي القاضيين الحنفي والحنبلي من الجانب الأيسر الوزير ، إن كان من أرباب الأقلام ، ويليه كاتب السر(١) .

---

١ ــ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٨ــ٢٠٩ (ذكر خدمة الايوان المعروف بدار العدل) هيئة جلوس السلطان بدار العدل لخلاص المظالم . =

ولما تولى برقوق عرش السلطنة ترك عادة الجلوس بالأيوان المعروف بدار العدل للنظر في المظالم واستعاض عنه بالمجلس بالاصطبل السلطاني في يومي الأحد والأربعاء ثم حول ذلك إلى يومي الثلاثاء والسبت وأضاف إليهما الجمعة بعد العصر. وفي ذلك المجلس كان ينظر الجليل والحقير من الأمور، ثم جرى ابنه الناصر فرج على الجلوس بالاصطبل اقتداء بأبيه. وكان كاتب السر فتح الدين فتح الله يقرأ القصص عليه كما كان يقرؤها على أبيه(١).

= ـ صبح الاعشى : الجزء الرابع ص ٤٤ـ٤٥ ·
ـ نقل كل من المقريزى والقلقشندى هذا النص عن مسالك الابصار ، الا أن المقريزى أغفل الاشارة الى ذلك بينما أثبته القلقشندى فى بداية النص · ولا يوجد خلاف بين النص الذى أورده المقريزى والنص الذى أورده القلقشندى الا فى الجزء الاخير منه الخاص باجراءات عرض القصص · وهو خلاف لا يتعدى الى جوهر الكلام اذ أن القلقشندى حاول ايجاز ذلك الوصف بأسلوبه الخاص ، لذلك رأيت اثبات النص الذى أورده المقريزى لانه أكثر دقة ·

١ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٠٨ (ص ٢٠٧ـ٢٠٨ ـ ذكر النظر فى المظالم) ·
ـ عندما استعاض برقوق المجلس بالاصطبل السلطانى للنظر فى المظالم عن الجلوس بالايوان المعروف بدار العدل ، اقتصر استخدام الايوان على عمل الموكب به فى المناسبات الرسمية ، وخاصة عند حضور القصاد عن الملوك الفخام · انظر : زبدة كشف الممالك ، ص ٨٦ـ٨٧ ·
ـ هذا ويتحدث صاحب زبدة كشف الممالك (ص٨٧) عن موكب الاصطبل ، وهو كما يتضح من وصفه شيء آخر غير جلوس السلطان بالاصطبل للنظر فى المظالم · فموكب الاسطبل كان بمثابة عرض عسكرى للجند ، وبعد العرض كان السلطان ينظر فى شؤونهم وفى كل ما يتعلق بالجيش · وكان كاتب السر يدخل على السلطان وهو فى هذا المجلس بعد انتهاء الموكب والنظر فيما يتعلق بالاقطاعات ليقدم اليه العلامة فيعلم السلطان ما أمضاه ·

(دراسة من واقع الاحداث السياسية)

لقد تمكن كاتب السر فتح الدين فتح الله من أن يرتفع برتبة كاتب السر على حساب رتبة الوزارة في وقت كان فيه أكثر اختصاصاً بالسلطان من الوزير سعد الدين إبراهيم بن غراب . غير أنه ما كاد سعد الدين إبراهيم يستعيد مكانته لدى السلطان فرج ويتمكن منه أكثر من ذي قبل ، حتى أخذ يدس لفتح الدين فتح الله لديه حتى نجح آخر الأمر في أن يدفع السلطان إلى القبض عليه وأن يوليه كتابة السر خلفاً له .

وسنرى من دراسة سيرة سعد الدين إبراهيم كيف أنه عرف يستفيد من هذه الفترة المضطربة التي عاصر أحداثها ، لأن شخصيته الانتهازية المتقلبة توافقت مع روح العصر . ففاق سعد الدين إبراهيم سلفه مهارة وقدرة ونجح في أن يتحقق في شخصه لكاتب السر أقصى ما يطمع فيه من سلطة ومكانة حتى أصبح عظيم الدولة وصاحب الحل والعقد بها .

فقد كان سعد الدين إبراهيم أحد الشخصيات الفذة التي لعبت دوراً هاماً في حياة الدولة المملوكية منذ أن بدأ نجمه يلمع في سنة ٧٩٨ إلى أن توفي في ١٩ رمضان سنة ٨٠٨ هـ ، ولم يكن قد بلغ الثلاثين عاماً من عمره . وهذه السنوات العشر شهدت الفترة الأخيرة من سلطنة الظاهر برقوق وبداية سلطنة ابنه الناصر فرج وما صحبها من أحداث في عهد الناصر فرج وخروج الأمراء على طاعته ، ثم فرار الناصر فرج واعتزاله العرش وتولية أخيه الملك المنصور عبد العزيز العرش مكانه ، وأخيراً عودة الناصر فرج إلى العرش بعد سبعين يوماً من اعتزاله .

بدأ سعد الدين إبراهيم حياته — وكان لا يزال صبياً — كاتباً لدى جمال الدين محمد بن علي بن أصغر عينه استادار الظاهر برقوق ، فاختص به حتى عرف كل شيء عن أمواله . وفي سنة ٧٩٨ هـ تغير جمال الدين عليه ،

ولما أحس سعد الدين ذلك منه ، استطاع عن طريق والي القاهرة وقتذاك ـ وكان عدواً لجمال الدين ـ أن يتوصل إلى السلطان ، ويعلمه بكل شيء عن أموال جمال الدين وأن يوغر صدره عليه حتّى نكبه السلطان واستصفى أمواله . وكافأ برقوق سعد الدين على ذلك بأن ولاه نظر الديوان المفرد في ١١ صفر ٧٩٨ هـ وعمره وقتذاك نحو العشرين سنة . وفي ١٩ ذي القعدة من نفس العام نجح بسفارة والي القاهرة في أن يلي ، بجانب وظيفته ، وظيفة ناظر الخواص الشريفة . غير أنه ما لبث أن تنكر لوالي القاهرة فوشى به لدى برقوق حتّى غيره عليه وعهد إليه برقوق باستخلاص الأموال منه . وفي هذه المرة كافأه برقوق بأن أضاف إليه في ٩ ذي القعدة سنة ٨٠٠ هـ نظر ديوان الجيش ، وبذلك نجح في أن يجمع في يديه ، في هذه السنوات الثلاث ، ثلاث وظائف من أكبر وظائف الدولة ، وهي نظر ديوان المفرد ، ونظر ديوان الخواص الشريفة ، ونظر ديوان الجيش . وعلى هذا النحو تمكن من برقوق في أخريات أيامه ، ولذلك جعله قبل أن يدركه الموت في شوال ٨٠١ هـ من جملة أوصيائه .

كما نجح سعد الدين في أن يحتفظ بثقة الناصر فرج ، بل إنه نجح في السنة التالية (٨٠٢ هـ) في أن يحمل الناصر فرج على استدعاء أخيه الأكبر فخر الدين ماجد ، وكان يلي نظر ثغر الاسكندرية ، وأن يعهد إليه بوظيفة الوزارة . فقاماسوياً بسائر أمور الدولة(١) ، إلى أن ولي الأمير يلبغا السالمي وظيفة الاستادارية ، وأطلق الناصر فرج يديه في جميع الأموال للاستعداد لملاقاة تيمور لنك .

---

١ ـ كان الجهاز الادارى فى الدولة المملوكية يتكون من خمسة دواوين هى : ديوان الوزارة ، وديوان الانشاء ، وديوان الجيش ، وديوان المفرد ، وديوان الخواص الشريفة ـ انظر : صبح الاعشى ، الجزء السادس ، ص ١٩٩ـ٢٠٢ .

ولم يحتمل سعد الدين علو منزلة يلبغا السالمي على هذا النحو ، فسلك معه عادته من المنافسة . فسعى به لدى الأمير يشبك ، القائم بأمر الناصر فرج وقتذاك ، حتّى قبض عليه وسلم إليه لمحاسبته على الأموال . وفي هذه المرة كوفيء سعد الدين بأن قلد وظيفة الاستادارية الكبرى عوضاً عن يلبغا السالمي ١٤ رجب سنة ٨٠٣ هـ ، مع احتفاظه بنظر الجيش ونظر الخواص الشريفة . وبذلك ارتفعت مكانته عن ذي قبل ، حتّى لم يعد أحد على قول المقريزي — يضاهيه في أحواله .

فلما ارتفعت منزلته على هذا النحو ركبه الغرور ، وحاول أن يلعب دوراً في الاضطرابات التي أثارها في سنة ٨٠٣هـ كبار الأمراء القائمين بأمر الناصر فرج . فلما فشل في تحقيق أطماعه غاضب أمراء الدولة وخرج إلى ناحية تروجه يريد جمع العربان ومحاربة الدولة . ولما لم يتم له ذلك وخشي مغبة ذلك العصيان ، اضطر إلى العودة إلى القاهرة . وفي القاهرة نجح في استعادة ثقة الناصر فرج وفي الاحتفاظ بوظائفه الثلاث التي كان يتولاها قبل خروجه .

وفي رمضان سنة ٨٠٥هـ تغير السلطان عليه وعلى أخيه فخر الدين ، فأمر بالقبض عليهما ، وسلم سعد الدين إلى عدوه السابق يلبغا السالمي لاستخلاص الأموال منه ، ، إلا أن يلبغا السالمي — على غير ما توقع المعاصرون — كان كريما معه . ولما خرج الأمير يشبك على السلطان عاودته طبيعته الانتهازية المتقلبة ، فقام مع الأمير يشبك في محاربة السلطان . ولما لم يقدر للأمير يشبك الانتصار انسحب إلى الشام هو وأصحابه ، وكان سعد الدين ممن انسحب معه إلى هناك .

ولما تيقن سعد الدين من فشل أمر الأمير يشبك عاد إلى القاهرة سراً . ونجح مرة أخرى بسعاية أحد أكابر الأمراء من أصحاب النفوذ ، وعن طريق

بذل المال للسلطان في أن يستعيد مكانته لديه وأن يقلده وظيفة نظر الجيش .

ويبدو أنه جمع بين نظر الجيش والوزارة ، فهذا ما يتضح من العبارة التي ذكرها المقريزي في حديثه عن وظيفة كتابة السر ، ونصها « وكانت العادة أن يجلس (كاتب السر) تحت الوزير ، فلما عظم تمكن القاضي فتح الدين فتح الله كاتب السر من الدولة جلس فوق الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم البشيري(١) .

غير أن المقريزي ، في معرض ذكر ترجمة حياته ، لم يشر إلى توليه وظيفة الوزارة مضافاً إلى نظر الجيش ، وإن كان قد أضاف إلى ذلك قوله ، « ثم تقلد وظيفة نظر الجيش واختص بالسلطان » (٢) .

وفي موضع آخر من كتابه ، وفي معرض ذكر ترجمة فتح الدين فتح الله كاتب السر ، يذكر أنه لما عزل فتح الدين عن كتابة السر في أوائل ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ ، استقر بدله سعد الدين (ضرب حتى حمل مالا ثم أفرج عنه فلزم داره إلى شهر رمضان ثم حمل إلى دار الوزير فخر الدين ماجد بن غراب وألزم بمال آخر يحمله وأطلق) (٣) .

وكيفما كان الأمر ، فسواء أكان سعد الدين هو الذي يلي الوزارة أم أخوه فخر الدين (٤) ، فإن فتح الدين كاتب السر كانت نكبته على يد سعد الدين . وذلك أنه لما علت منزلة فتح الدين على النحو الذي أشرنا إليه ، وأصبح يجلس في مجلس السلطان فوق الوزير ، ثقل ذلك على سعد الدين

---

١ ــ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٦ (كتابة السر) .

٢ ــ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٤٢٠ .

٣ ــ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٦٢ــ٦٣ (ترجمة حياة فتح الدين فتح الله) .

٤ ــ تولى فخر الدين ماجد الوزارة اربع مرات فى الفترة من عام ٨٠١ حتى عام ٨٠٩ ، انظر : — WIET : Op.Cit, p. 13.

فسعى به عند السلطان . وما زال يوغر صدره عليه حتى أمر السلطان بالقبض عليه في أوائل شهر ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ ، وولى مكانه سعد الدين . بل إن السلطان سلمه إلى سعد الدين لاستخلاص مبلغ مليون درهم قرره عليه . فحمل إلى دار سعد الدين تحت العقوبة إلى أن استخلص منه نصف المبلغ المقرر عليه ثم أفرج عنه . غير أنه حمل بعد ذلك إلى أخيه فخر الدين وألزم بمال آخر فحمله ثم أفرج عنه(١) .

وأما وقد وصلنا إلى هذا القدر من تتبع سيرته ، فإنه يحسن بنا أن ننقل عن المقريزي ما قام به وهو في وظيفة كتابة السر . يقول « فلما استقر في كتابة السر أخذ في نقض دولة الناصر إلى أن تم له مراده ، وثارت الدولة كلها على الناصر ، فخلا به وخيل له وحسن له الفرار فانقاد له وترامى عليه . فأعد له رجلين أحدهما من مماليكه ، ومعهما فرسان ووقفا بهما وراء القلعة . وخرج الناصر وقت القائلة ومعه مملوك من مماليكه يقال له بيغوت وركبا الفرسين وسارا إلى ناحية طرا . ثم أعاده مع قاصدي ابن غراب في مركب من المراكب النيلية ليلا إلى دار ابن غراب ونزل عنده ، وقد خفي ذلك على جميع أهل الدولة ، وقام ابن غراب بتولية عبد العزيز بن برقوق وأجلسه على تخت الملك عشاء ولقبه بالملك المنصور ودبر الدولة كما أحب مدة سبعين يوماً إلى أن أحس من الأمراء بتغير ، فأخرج الناصر ليلا وجمع عليه عدة من الأمراء والمماليك وركب معه بلامة الحرب إلى القلعة فلم يلبث أصحاب المنصور أن انهزموا ودخل الناصر القلعة واستولى على المملكة ثانية . فألقى مقاليد الدولة إلى ابن غراب وفوض إليه ما وراء سريره ونظمه في خاصته

١ ــ الخطط ، الجزء الثاني ، ص ٦٢ــ٦٣ .
ــ أنباء الغمر ، تحقيق حسن حبشي ، ج ٢ ، ٣١٨ .
ــ النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ١٦٧
— WIET : Op. Cit, No. VII, p. 6.

وجعله من أكابر الأمراء ، وناط به جميع الأمور ، فأصبح مولى نعمة كل من السلطان والأمراء ، يمن عليهم بأن أبقى لهم مهجهم وأعاد إليهم سائر ما كانوا قد سلبوه من ملكهم ، وأمدهم بماله وقت حاجتهم وفاقتهم إليه ، ويفخر ويتكبر بأنه أقام دولة وأزال دولة ، ثم أزال ما أقام وأقام ما زال من غير حاجة ولا ضرورة ألجأته إلى شيء من ذلك وأنه لو شاء أخذ الملك لنفسه . وترك كتابة السر لغلامه وأحد كتّابه فخر الدين بن المزوق ترفعاً عنها واحتقاراً لها ولبس هيئة الأمراء ، وهي الكلوته(١) والقباء ، وشد السيف في وسطه . غير أن المرض لم يسعفه فنزل به مرض الموت ، فمات بعد ذلك بثلاثة أشهر ، في ١٩ رمضان من سنة ٨٠٨ هـ ، ولم يبلغ ثلاثين سنة » (٢) .

حقاً لقد كان سعد الدين – بعد أن أعاد الناصر فرج إلى عرش السلطنة صاحب الأمر والنهي في الدولة ، فالسلطان لم يكن سوى ظلا له ، وانه لو شاء لأخذ الملك لنفسه(٣) .

بل لقد ظلت مهابته في النفوس أثناء مرضه مرض الموت(٤) . فعندما أقعده المرض في شهر جمادى الآخرة سنة ٨٠٨هـ تولى وظيفة كتابة السر غلامه وكاتبه فخر الدين ماجد بن المزوق ، الذي كان قد أناط به مهام كتابة السر بعد أن ترفع عنها وأصبح من أكابر أمراء المئين وألقى إليه الناصر فرج مقاليد

---

١ – الكلوتة هى غطاء الراس ، وهى طاقية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة . (انظر عاشور ، المرجع السابق ، ص ٤٤٤) .

٢ – انظر ترجمة حياته فى الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٤١٩–٤٢٠ .
— WIET : Op. Cit, No. VIII, p. 7-8
— G. DEMOMPYNES : Op. Cit, p. XLIX.

٣ – النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٢٧٦–٢٧٧ .

٤ – يقول المقريزى ، الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٤٢٠ ، سطر ٢٠ (وصار الامير يشبك فمن دونه من الامراء يترددون اليه وأكثرهم اذا دخل عليه وقف قائما على قدميه حتى ينصرف الى أن مات) .

الدولة . وكان فخر الدين ماجد قد اختص بسيده وتمكن منه ، فلما ترك سعد الدين وظيفة نظر الجيش إلى وظيفة كتابة السر في شهر ربيع الأول من هذه السنة أحله سعد الدين محله بها وظل يشغلها إلى أن استقر عوضه في كتابة السر بعد وفاته بناء على رغبته(١) .

وما أن توفي سعد الدين إبراهيم في ١٩ رمضان حتى بدأ فتح الدين فتح الله يسعى للعودة إلى كتابة السر ، وهذا ما نجح فيه ، ففي ٧ ذي الحجة من نفس العام أعيد إليها بفضل سعاية أقوى الأمراء نفوذاً وقتذاك ، الأمير جمال الدين يوسف البيري الاستادار . فلما استقر بها ، تمكن من أعدائه ، كما نجح في أن يتمكن من الناصر فرج أكثر من ذي قبل ، فانفرد بالمكانة الأولى لديه ، وانيطت به جلائل الأمور ، فأصبح (عظيم المصر ، نافذ الأمر قائماً بتدبير الدولة ، لا يجد أحد من عظماء الدولة بدأ من حسن سفارته ، وأبدى للناس ديناً وخيراً وتواضعاً وحسن وساطة بين الناس والسلطان) (٢).

وقدر لفتح الدين فتح الله أن يلعب دوراً هاماً ، بحكم وظيفته أثناء الفترة الأخيرة من حياة الناصر فرج . وهذا الدور يشابه الدور الذي قام به سلفه سعد الدين إبراهيم بن غراب عندما دبر فرار الناصر فرج ، ثم أجلس أخاه الملك المنصور على العرش مكانه ، ثم أعاد الناصر فرج إلى عرش السلطنة بعد سبعين يوماً من فراره . وعلى الرغم من اختلاف العاقبة بالنسبة لكل من الشخصيتين ، فإن ما يهمنا — في هذا الصدد — هو أن نبرز في المقام الأول مدى الأهمية التي آلت إليها وظيفة كتابة السر ، ومدى خطورة الدور الذي يمكن أن يلعبه كاتب السر في اللحظات الحاسمة التي يتقرر فيها مصير السلطنة .

---

١ — WIET : Op. Cit, No. IX, p. 13.

٢ — الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٦٣ ، السطر الرابع (النص نقلا عن المقريزى) .
— النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٢٢٦

ففي سنة ٨١٤هـ اضطر الناصر فرج إلى الخروج إلى الشام على رأس حملة كبيرة لمواجهة الأميرين شيخ وتوروز اللذين كانا قد تحالفا ضده وقطعا اسمه من الخطبة في دمشق وأعمالها . وفي هذه الحملة اصطحب الناصر فرج معه الخليفة العباسي المستعين بالله وكاتب السر فتح الدين فتح الله ، وقضاة القضاة الأربعة . وعند اللجون بظاهر دمشق انهزم فرج ووقع في أيدي شيخ وتوروز عدد كبير من رجاله ، كان من بينهم – على وجه التخصيص – الخليفة المستعين بالله وكاتب السر فتح الله(١) . وأراد شيخ وتوروز أن يستغلا وجود فتح الله في قبضتيهما ، فطلبا منه ، بوصفه كاتب السر ، أن يكتب كتاباً يبلغ فيه من بقى من الأمراء بالقاهرة هزيمة الناصر فرج ، لعل ذلك يؤدي إلى التعجيل بنهايته .

ولما لم تكن نتيجة هذا الصراع قد اتضحت بعد ، فقد رفض فتح الله الاستجابة لهذا الطلب متعللا بأن مثل هذا الكتاب لا بد وأن يحمل توقيع السلطان القائم . ولكنه في نفس الوقت كان يخشى أن يتعرض لنقمتهما ، فأشار عليهما بإرسال أحد البريدية لإبلاغ ما يريدون من إخبار للأمراء بالقاهرة (٢) .

غير أنه لما رأى انصراف معظم الأمراء عن الناصر فرج وبداية انحلال أمره اتجه إلى العمل على تأمين سلامته وعلى الاحتفاظ بمكانته . فكان هو

---

١ – الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٤٢ ·
– النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٢٥٧ وما يليها ·
– ابن اياس : بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الاول ، ص ٣٥٥ ·

٢ – النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٢٦٣–٢٦٤ ·

المحرك للأحداث التي تلت ذلك وانتهت بقتل الناصر فرج وتولية الخليفة المستعين بالله عرش السلطنة .

وذلك أن شيخ وتوروز ومن معهما من الأمراء الثائرين اجتمعوا بالخليفة المستعين بالله والقضاة وألزموه بخلع الناصر فرج . ولما لم يكن هناك خيار أمام الخليفة ، فقد استجاب لهذا الضغط ، وكتب المجتمعون محضراً وقعه الخليفة والقضاة بأفعال فرج السيئة وإدمانه على شرب الخمر وكثرة سفكه للدماء ، ثم خلعوه من السلطنة وأخذوا يتشاورون فيمن يليها(١) .

ولما تعذر الاتفاق بين شيخ وتوروز لتطلع كل منهما إلى عرش السلطنة ، أشار فتح الله باختيار الخليفة المستعين بالله . ونشط فتح الله على أن تصبح مشورته أمراً واقعاً . فهو الذي استطاع إزالة مخاوف الخليفة وإقناعه بتولي السلطنة مع احتفاظه بالخلافة ، وهو الذي حصل له على وعد من توروز بحمايته وعلى تعهد الأمراء بقبول شرط الخليفة بأن يظل في الخلافة إذا ما عزل عن السلطنة . ومن ثم فقد استقر الأمر على مبايعة الخليفة المستعين بالله بالسلطنة ، على أن يكون الأمير شيخ أتابك العساكر ومدبر المملكة بمصر ، ويكون توروز نائب الشام يحكم في البلاد الشامية من غزة إلى الفرات ، يولي بها من يختار ويعزل من يختار(٢) .

غير أن الناصر فرج رفض أن يعتزل العرش ، واستمر يباشر مهام منصبه ، وظل يصدر الأوامر والقرارات خاصة في الولاية والعزل . وكان من الطبيعي أن يعاقب فتح الله على موقفه هذا ، فصرفه عن كتابة السر وعين عوضاً عنه سلفه فخر الدين ماجد بن المزوق ، وغلام عدوه اللدود سعد الدين

---

١ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٤ .
ـ النجوم الزهارة ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٣١١ .
٢ ـ النجوم الزاهرة ـ نفس الطبعة والجزء ، ص ٣٠٤،٢٦٦ .
ـ بدائع الزهور ، الجزء الاول ، ص ٣٥٨،٣٥٥ .

إبراهيم بن غراب(١) . وقد أثار قرار تولية فخر الدين ماجد كوامن العداوة الشديدة لدى فتح الله ، والخوف الشديد من أن يقع في قبضة غلام عدوه فينتقم منه سيده من قبل . ولذلك نشط للاجهاز على الناصر فرج قبل أن تمتد إليه يده بسوء ، فاستصدر من الخليفة العباسي ، بوصفه كاتب سره ، كتاباً أهدر فيه دم الناصر فرج بعد أن أفتى قاضي القضاة ابن العديم بقتله(٢) .

وكان لهذه الفتوى وهذا الكتاب أثرهما الكبير في التعجيل بنهاية فرج فاستؤنف القتال أشد ما يكون ضراوة من قبل ، وانتهى الأمر باستسلام الناصر فرج لأعدائه بعد أن انصرف عنه معظم أتباعه ، ثم قتله أبشع قتلة في قلعة دمشق على يد جماعة من الفداوية(٣) .

فلما عاد الأمير شيخ بصحبة الخليفة العباسي المستعين بالله إلى القاهرة في شهر ربيع الآخر سنة ٨١٥ هـ استبد شيخ بالأمور دونه وأجبره بعد أسبوع من دخولهما القاهرة على أن يفوض إليه أمور المملكة من غير مراجعة . ثم ما لبث أن قبض عليه وسجنه في إحدى دور القلعة ، وأعلن توليه عرش السلطنة في شهر شعبان وتلقب بالملك المؤيد (٤) .

وما أن استقر الأمر للمؤيد بمصر حتى وضع نصب عينيه أن يتخلص من فتح الدين فتح الله وأن يعاقبه على موقفه السابق منه بدمشق ، هذا ومن جهة أخرى فإن توروز نائب الشام رفض الاعتراف بسلطنة المؤيد وظل

---

١ ـ النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٣٠٦ .

٢ ـ النجوم الزاهرة : نفس الطبعة والجزء ، ص ٣١١ .
ـ بدائع الزهور ، الجزء الاول ، ص ٣٥٨ .

٣ ـ — WIET : L'Egypte Arabe, p. 540-542

٤ ـ ـ النجوم الزاهرة : نفس الطبعة والجزء ، ص ٣٠٣ـ٣١٨ .
ـ السيوطى : حسن المحاضرة ، الجزء الثانى ، ص ٨١ـ٨٣ .
ـ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣٨ .

مقيماً الخطبة بإسم الخليفة المستعين بالله(١) . وخشي المؤيد أن تتطور الأمور في غير صالحه ، وأن يقوم فتح الدين فتح الله بدور مماثل للدور الذي قام به من قبل بدمشق لصالح الخليفة . ولذلك لم يشأ مجابهته بالعداء ، فاستبقاه في وظيفته حتى يدبر أمر التخلص منه . ثم أخذ يجرده شيئاً فشيئاً من اختصاصاته ، ويعمل على إبعاد الأصدقاء والاتباع عن بابه ، فبدأ بأن صرفه عن نظر بيمارستان قلاوون – وكان يباشرها بجانب كتابة السر – ، ثم ثنى بأن أخذ يعتمد ، فيما يختص باستصدار القرارات والمراسيم والتوقيع عليها ، على موقعه الخاص ناصر الدين محمد بن البارزي الذي كان قد جاء بصحبته من دمشق(٢) .

وعلى هذا النحو وجد فتح الله نفسه وحيداً لا يؤدي عملا يذكر . فلما انصرف عن بابه الأصدقاء والأتباع ، وأصبح مهيض الجناح ، أمر المؤيد بالقبض عليه في يوم الخميس ٩ شوال سنة ٨١٥هـ ، وأمر بمعاقبته على الأموال . فعوقب غير مرة وصودرت جميع أمواله بعد بيع جميع أسبابه وموجودة . ثم انتهى به الأمر إلى أن مات تحت العقوبة خنقاً في ليلة الأحد ١٥ ربيع الثاني سنة ٨١٦ هـ (٣) . وأما الخليفة المستعين بالله ، فإن المؤيد قبل أن يخرج لقتال توروز بالشام ، في هذه السنة ، أمر بعزله عن الخلافة وسجنه بالقلعة(٤) .

وهكذا شاءت ارادة الله أن تنتهي حياة فتح الدين فتح الله على هذا النحو.

---

١ – ابن اياس : بدائع الزهور ، نفس الجزء والصفحة .
– النجوم الزاهرة : نفس الطبعة والجزء ، ص ٢١٧–٢١٩ .
٢ – النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢١٧ ، ٢١٩ .
٣ – الخطط ، الجزء الثاني ، ص ٤٠٣،٦٣ .
— WIET : Les Secretaires, No. X, p. 14-16.
٤ – السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٣٨ .

وكما سبق أن قلت فإن الحكم على الأشخاص ومدى ما يصيبونه من نجاح أو فشل ليس هو ما يهمنا إبرازه في هذا المجال . فالنجاح أو الفشل ، كما يتضح من سياق الحوادث في هذه الفترة المضطربة ، يرتبط بحسن الطالع أكثر مما يرتبط بغيره من الأمور التي تقرر مصائر الرجال . ومن ثم فإن ما يهمنا في المقام الأول ، بعد أن تعرفنا على سيرة سعد الدين إبراهيم بن غراب . وعلى سيرة فتح الدين فتح الله ، وما قاما به من دور رئيسي في تقرير مصير السلطنة في فترتين من أحلك الفترات التي عرفها تاريخ الدولة المملوكية ، إنما هو إبراز أهمية خطورة وظيفة كتابة السر بعد أن أصبح كاتب السر صاحب المرتبة الأولى بين أصحاب الوظائف من أرباب الأقلام بالحضرة السلطانية وبعد أن أصبح صاحب المكانة الأولى في الدولة في حالة التمكن من السلطان والاختصاص به ، كما كان حال سعد الدين وفتح الله مع الناصر فرج .

وكان هذا أيضاً هو حال ناصر الدين محمد بن البارزي الذي خلف فتح الدين فتح الله في كتابة السر مع المؤيد شيخ نظراً للصلة القوية التي ربطت بينهما منذ أن كان شيخ أميراً بالشام .

فقد ارتبطت حياة ناصر الدين بحياة الأمير شيخ منذ أن كان نائباً لدمشق . وكان ناصر الدين ، قبل ذلك ، قد أهلته تربيته الدينية ، ليتولى قضاء الشافعية ثم ديوان المكاتبات بحماه ، ومن ثم كان ذا نفع كبير عندما اتصلت حياته به . ولما انتقل شيخ إلى نيابة حلب صحبه ناصر الدين إليها حيث ولاه شيخ وظيفة القضاء بها .

وأثارت صلة ناصر الدين الوثيقة بشيخ حفيظة الناصر فرج ، فأمر بالقبض عليه وسجنه في قلعة دمشق . وكاد الأمر ينتهي بقتله لولا أن سعى لتبرئته وإطلاق سراحه نائب الشام ، وقتذاك ، الأمير تغري بردي والد المؤرخ أبي المحاسن . غير أنه بعد أن أطلق سراحه ، عاد فلحق بالأمير

شيخ ، وظل في خدمته إلى أن تم له النصر هو والأمير توروز على الناصر فرج وإلى أن تمت مبايعة الخليفة المستعين بالله بالسلطنة .

ولما دخل الأمير شيخ القاهرة بصحبة الخليفة المستعين ، جاء ناصر الدين معه . وعندما استبد شيخ بالأمور دون الخليفة وأصبح مدير المملكة عينه موقعاً خاصاً له كما أصبح يعتمد عليه في مباشرة مهام كتابة السر بعد أن استقر أمره على تجريد فتح الدين فتح الله من اختصاصاته توطئة لعزله والتخلص منه . ثم ازدادت مكانته عند شيخ بعد أن تولى السلطنة في شهر شعبان سنة ٨١٦ هـ ولذلك لم يعجب أحد عندما عزل فتح الدين فتح الله في ٩ شوال من نفس السنة ، وعين عوضاً عنه ، بعد بضعة أيام ، ناصر الدين . وظل ناصر الدين يتولى وظيفة كتابة السر حتى أدركته الوفاة في ٨ شوال سنة ٨٢٣ هـ .

وبالإضافة إلى توليه وظيفة كتابة السر ، فقد عينه المؤيد شيخ خطيباً للجامع المؤيدي وخازناً للكتب به ، كما أشركه مع الدوادار الكبير في نظر الجامع المذكور(١) ، وأصبح هذا حقاً لكل من يلي وظيفة كتابة السر من بعده(٢)

وطول هذه المدة كان ناصر الدين محمد بن البارزي صاحب المكانة الأولى لدى المؤيد وأعظم رجال دولته نفوذاً وسلطاناً ، وانه كان عليه المعول في كل شيء(٣) ، ولذلك احتفظت كتابة السر ، في شخصه بما وصلت إليه من مكانة رفيعة من قبل .

---

١ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٣٢٩ ،٣٣٠ (يذكر المقريزى عن خزانة الكتب بالجامع المؤيدى أن المؤيد حمل اليها كتبا كثيرة فى أنواع العلوم المختلفة كانت بقلعة الجبل ، كما حمل اليها ناصر الدين محمد بن البارزى كاتب السر خمسمائة مجلد قيمتها ألف دينار) .

٢ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٥ أ .

٣ ـ WIET : Op. Cit, No. XI, p. 16-18

وبعد وفاة ناصر الدين محمد بن البارزي خلفه ابنه كمال الدين في وظيفة كتابة السر لفترة قصيرة لم تتعدى الثلاثة شهور (من شوال ٨٢٣هـ حتى ٢٦ محرم ٨٢٤هـ(١) ثم خلفه فيها زوج أخته علم الدين داود بن الكويز من ٢٦ محرم ٨٢٤هـ حتى أدركته الوفاة في شوال ٨٢٦هـ . وهذه الفترة التي تولى فيها ابن الكويز كتابة السر تعتبر من أحرج فترات الانتقال التي عرفها تاريخ الدولة المملوكية . وطوال هذه الفترة الحرجة كانت أمور المملكة لا تصدر إلا عن رأي وتدبير ابن الكويز(٢) .

وهكذا يتضح لنا من هذه الدراسة المستمدة من متابعة تطور نظم الحكم ، ومن متابعة سير الأحداث السياسية في الدولة المملوكية ، ان كتّاب السر تحقق لهم أعلى مراتب النفوذ في الدولة أثناء الفترة الأولى من عصر المماليك الجراكسة .

وقد ظلوا محتفظين بهذه المرتبة طوال بقية ذلك العصر ، بل إنه في الفترة الأخيرة منه زاد الفارق كثيراً بين كاتب السر والوزير من حيث الرتبة والمكانة .

فابن تغري برديعندما يذكر في سنة ٨٥٨هـ أسماء أعيان مباشريالدولة من المتعيمين ، أي من أرباب الأقلام ، يذكر على رأسهم كاتب السر ، وأما الوزير فيأتي ذكر اسمه في المرتبة الرابعة ، ثم يعلق على ذلك ساخراً بقوله أنه كان يجمل به السكوت عن ذكر من يلي الوزارة ، إلا أنه لا يسعه إلا ذكرها لمحلها الرفيع في سائر الأقطار(٣) .

---

١ ـ انظـــر :
— WIET : Op. Cit, No. XIII, p. 19-21.
— DARRAG : L'Egppte nous le regne de Barsbay, p.19.

٢ ـ أنباء الغمر ، تحقيق حسن حبشى ، ج٣ ، ص ٣٩،٣٠٣،٣٠٩ .

٣ ـ النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السابع ، ص ٤٤٣ .
ـ كانت الوزارة فى بداية الدولة المملوكية تأتى فى المرتبـــة

وأما ابن اياس في معرض حديثه في سنتي ٨٩١ و ٩٠٤ عن أصحاب الوظائف الديوانية ، فإنه يذكر أيضاً على رأسهم كاتب السر ، ثم يذكر في المرتبة السادسة من يلي الوزارة(١) .

وفي الواقع أن هذا الفارق الكبير ، من حيث المكانة والرتبة ، بين كاتب السر والوزير ، يرجع إلى أن الوزارة كان قد اقتصر معظم اختصاصها في هذه الفترة على تدبير رواتب اللحوم للمماليك السلطانية(٢) . ولهذا لا ندهش إذا ما عرفنا أن القصابين هم الذين كانوا يتولون أمورها — في غالب الأحيان — منذ عهد الظاهر خشقدم .

ففي سنة ٨٦٧ هـ خلع الظاهر خشقدم على شمس الدين محمد البباوي وقرره في الوزارة . وقد استاء الناس لذلك كثيراً ، كما علق ابن إياس على على ذلك بقوله : «ومن يومئذ انحط قدر الوزارة جداً وتبهدل هذا المنصب»(٣).

= الاولى بين أرباب الوظائف الديوانية ثم يليها كتابة السر ، ثم بقية أرباب الوظائف الديوانية وعددها خمسة وعشرون وظيفة غير أن المعتبر منهـا لم يكن يتعدى التسع — انظـر : صبح الاعشى : الجزء الرابع ، ص ٢٨—٣٤ .

١ — ابن اياس ، طبعة استانبول ، الجزء الثالث ، ص ٢١٨ (سنة ٨٩١هـ) ، ص ٣٨٦ — ٣٨٧ (سنة ٩٠٤) .

٢ — بالاضافة الى الجامكية (أى الراتب) الشهرية التى يتقاضاها كل مملوك كان يتقاضى رواتب أخرى مالية وعينية فى مناسبات معينة . غير أن أهم هـذه الرواتب كان الراتب اليومى من اللحم — انظر :

— حوادث الدهور ، طبعة كاليفورنيا ، ص ٦٨٩—٦٩٣ .

— ابن اياس : طبعة استانبول الجزء الثالث ، ص ٢٠—٧١ .

— AYALON : L'esclavag e du Mamlouk, in Oriental Notes and Studies, Published by the ,Israel Oriental Society, Jerusalem,1951 p. 50, note 122.

٣ — ابن اياس : طبعة بولاق — الجزء الثانى ، ص ٧٧،٨٠ .

وبعد أن مت شمس الدين البباوي في سنة ٨٧٢هـ غريقاً ، خلفه في الوزارة أحد صيارف اللحم وأحد رجاله ، قاسم شغيته ، أو جغيته ، على قول آخر . وبلغ استياء الرأي العام حداً لدرجة أن ابن تغري بردي عبر عن ذلك ، في حديثه عن حوادث تلك السنة بقوله « الوزير عامي لا أعلم كنيته ، غير أن اسمه قاسم جغيته) (١) . وقد باشر قاسم شغيته ديوان الوزارة مدة طويلة حتى أدركته الوفاة سنة ٩٠٠هـ ، وفي أثناء مباشرته لها جرى عليه شدائد ومحن كثيرة لدرجة أنه مات وهو تحت العقربة(٢) .

ولكي تتضح لنا آخر الأمر الصورة الكاملة لرتبة كاتب السر ومكانته ، يجمل بنا أن ننقل إلى القاريء ما ورد ، في هذا الصدد ، على لسان المؤرخين الذين اختصوا بتاريخ نظم الحكم في عصر المماليك الجراكسة .

فالقلقشندي الذي انتهى من تأليف كتابه صبح الأعشى ، في شهر شوال سنة ٨١٤هـ ، يتحدث عن رتبته ، في زمانه ، بقوله «ورتبة صاحب ديوان الإنشاء في زماننا أرفع مرتبة ، ومحله أعظم محل ، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها ، وبرأيه يستضاء في مشكلاتها ، وعلى تدبيره يعول في مهماتها ، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر ، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ، ويقوم توقيعه على القصص في نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان وجميع ما يعلم عليه السلطان من جليل وحقير في مزرته(٣) . حتى ما يكتب من ديوان الجيش من المناشير(٤) ، وما يكتب من ديوان الوزارة ،

١ ـ حوادث الدهور ، طبعة كاليفورنيا ، ص ٨٤٥ .
٢ ـ ابن اياس ، طبعة استانبول ، الجزء الثالث ، ص ٣٠٠ .
٣ ـ عن المزرة ـ انظر بعد ، الباب الرابع ، ص ١٣١ـ١٣٢ .
٤ ـ ومفردها منشور ، وهو فى الاصل كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لا تحتاج الى ختم كالمكاتبات الخاصة بالولاية ومنح الاقطاعات (انظر عاشور ، المرجع السابق ، ص ٤٥٥) .
ـ غير أن المناشير أصبحت فى العصر المملوكى خاصة

وديوان الخاص وغيرهما من المربعات(١) وغيرها . وليس لأحد من المتولين لهذه المناصب التعرض لأخذ علامة سلطانية البتة ، وناهيك بذلك رفعة وشرفاً باذخاً) (٢) .

وأما غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، الذي كتب كتابه « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » في عصر السلطان جقمق (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ) (٣) فيتحدث عنها بقوله « وأما كتابة الإنشاء فهي من مقومات الملك وقواعد المملكة وصاحبها المباشر لها في خدمة السلطان معدود من أكبر الأعضاء والأعوان ، قائم في اهتمام مقاصده وأغراضه مقام الترجمان ، فأنزل منه منزلة القلب واللسان من الإنسان ، فإنه المطلع على الأسرار ، المجتمع لديه خفايا الأخبار ، المنتفع به في طريقي النفع والأضرار) (٤) .

وأما الخالدي صاحب كتاب «المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا » الذي كتبه بعد سنة ٨٥٧ هـ ، أي في أوائل سلطنة الأشرف إينال(٥) فيوجز

= باقطاعات الامراء والجنود ولذلك أصبحت لا تصدر الا عن ديوان الجيش (انظر :

— STERN : Op. Cit, p. 85 90.

١ — المربعات هى التى تصدر عن ديوان الجيش خاصة بالاقطاعات وربما سميت كذلك لانها كانت فىقطع الربع — انظر بعد ص ١١٣

٢ — صبح الاعشى ، الجزء الاول ص ١٠٢—١٠٣ ·

— عن العلامة السلطانية ، أى توقيع السلطان ، انظر بعد الباب الرابع ، ص ١٣٢—١٣٣ ·

٣ — الدكتور زياده : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٢٤ ·

٤ — زبدة كشف الممالك ، ص ٩٩ ·

٥ — يرى الدكتور زيادة (المرجع السابق ، ص ٢٤—٢٥) أن الخالدى كتب كتابه فى منتصف عهد برسباى تقريبا أو بعد سنة ١٤٣٢م على وجه التحقيق · غير أنه اتضح لى بعد القراءة الجادة لهذه المخطوطة أن الخالدى كتبها فى أوائل

أهمية كاتب السر في الدولة المملوكية في هذه الكلمات « وأسند إليه أمر الولايات والعزل وغالب أمور المملكة ثم اتسع له مجال التدبير والتصرف إلى أن صار أمين المملكة ورأس أعيانها لا يضع الملك في أمر مملكته حرفاً إلا على ما يخرج من حوزته بعد اطلاعه عليه » (١) .

وهذه المكانة التي تحققت لكاتب السر الشريف بالديار المصرية تتجلى أكثر ما تتجلى في صيغة المكاتبة التي يكتب بها إليه . فهذه المكاتبة تزخر بالعديد من الألقاب والصفات التي كانت تطلق عليه على سبيل التفخيم والتعظيم ، غير أن لبعضها على وجه التخصيص ، دلالة فعلية بالنسبة لرتبته ومكانته في الدولة . ومن هذه الألقاب التي تعنينا تلك التي وردت في نهاية المكاتبة ، ونصها « . . كهف الكتاب ، يمين المملكة ، لسان السلطنة ، سفير الأمة ، سليل الأكابر ، مشير الملوك والسلاطين ، ولي أمير المؤمنين »(٢).

وكان كاتب السر الشريف بالديار المصرية يصدر بتعيينه ، توقيع شريف(٣) في قطع النصف بقلم الثلث . وكذلك كاتب السر بالشام ، فإنه

= سلطنة الاشراف اينال (٨٥٧ـ٨٦٥هـ) . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن الخالدى عندما تحدث عن كتاب السر فى الدولة المملوكية ساردا أسماءهم الواحد بعد الاخر توقف عند ذكر محب الدين بن الاشقر فى ولايته الثانية لكتابة السر فى سلطنة الاشرف اينال (انظر المقصد الرفيع ورقة ١٦) هذا ومن المعروف أن محب الدين بن الاشقر تولى هذه الوظيفة للمرة الثانية فى ربيع الاول سنة ٨٥٦هـ وظل بها حتى شهر ذى القعدة سنة ٨٥٧هـ ، وباشر مهام وظيفته خلال هذه الفترة للظاهر جقمق وابنه المنصور عثمان ، ثم للاشرف اينال ـ انظر :
— WIET : Op. Cit, No. XXVII, p. 34.

١ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١ .

٢ ـ التثقيف ، ورقة ٦٥ ب ، ٦٦ أ .

٣ ـ التواقيع الشريفة المكبرة هى قرارات التعيين الخاصة بأرباب السيوف والاقلام وكانت على أقسام ، منهـا ما هو فى قطع

وإن كان يعتبر مرءوساً له إلا أنه كان يتساوى معه في الرتبة . وهما في هذا كانا يتساويان معَ قضاة القضاة الأربعة بالديار المصرية والشامية ، وناظر الحرمين الشريفين وناظر البيمارستان ، وغيرهم من أرباب الوظائف الدينية والديوانية من المتعممين خاصة .

وأما أصحاب ديوان المكاتبات ببقية النيابات فكان يصدر بتعيينهم توقيع شريف في قطع الثلث بقلم التوقيعات ، مثلهم في ذلك مثل نقيب الأشراف والمحتسبين وكتّاب الدست الشريف بمصر والشام .

وأما كتّاب الدرج ، فقد كان يصدر بتعيينهم توقيع شريف في قطع العادة بقلم الرقاع (١) .

ونظراً لأهمية كاتب السر وحاجة السلطان إليه في كل وقت فقد كان يقوم في دار مخصصة له بالقلعة(٢) ، وكانت هذه الدار تقع على مقربة من الايوان(٣) .

= النصف بقلم الثلث ، ومنها ما هو فى قطع الثلث بقلم التوقيعات ومنها ما هو فى العادة بقلم الرقاع ، ومنها ما هو على ظهور القصص . وهذه التوقيعـــات كانت مختصة بأرباب الوظائف الدينية والديوانية من المتعممين ، ولم يكن يكتب لارباب السيوف منها الا القليل – انظر :

– صبح الاعشى – الجزء الحادى عشر ، ص ٢٧ .

– التثقيف ، ورقة ٧٤ ب .

١ – التثقيف ، ورقة ٧٤ ب ، ٧٦ ١ ، ١١٠ ١،ب .

المقصد الرفيع ، ورقة ١٤٨ ب .

– يذكر كـل من صاحب التثقيف والمقصـد أن صاحب ديوان المكاتبات بحلب كان يكتب له توقيع شريف فى قطع الثلث ، ثم أصبح يكتب له فى قطع النصف بعد أن تغير لقبه الى « صاحب ديوان الانشاء بحلب » .

٢ – كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة – ترجمة احمد دراج ، ص ١٦٢،١٦٨،١٧٠ (وكان يوجـد بالقلعة مساكن مخصصة لاكابر الامراء وللوزير ولكاتب السر) .

٣ – — G. DEMOMPYNES : Op. Cit, p, LXXI.

(البـــاب الـــرابع)

اختصاصات كاتب السِّـــر

- بحث فى المصـــادر ·
- ما يتصرف فيه كاتب السر برأيه وحسن تدبيره ·
- ما يتصرف فيه كاتب السر بقلمه ·
- ترتيب أصحاب الوظائف بديوان الإنشاء واختصاص كل منهم ·

اختصاصات كاتب الســـر

(بحث فى المصـــادر)

لقد صاحب ارتفاع رتبة كتابة السرّ ، منذ بداية نشأتها في عهد المنصور قلاوون حتى أوائل القرن التاسع الهجري ، ازدياد مستمر أيضاً في اختصاصات كاتب السر . وفي معرض التدليل على ذلك ، سبق أن نقلت عن المقريزي اختصاصات كاتب السر حسبما استقر عليه الأمر في أيام الناصر محمد بن قلاوون بعد أن قام بإصلاحه الإداري في سنة ٧٣٧ هـ . فبمقتضى هذا الإصلاح آلت إلى كاتب السر جميع اختصاصات الوزير ما عدا ما كان منها متعلقاً بالنظر في الأموال .

غير أن اختصاصات كاتب السرّ لم تتوقف عند هذا الحد ، فقد اتسعت مجالاتها مع التزايد المستمر في رتبته ومكانته في الدولة . فازدادت مرة أخرى على حساب الدوادارية الكبرى ، بعد أن نجح كاتب السر أو حد الدين عبد الواحد في إثارة مخاوف برقوق من إشراف الدوادار الكبير على البريد . وكان أوحد الدين أثيراً لدى برقوق ، ولذلك تحقق ما أراد ، فآل الإشراف على البريد إلى كاتب السر بعد أن كان تابعاً للدوادار الكبير .

وازدادت هذه الاختصاصات مرة ثالثة نتيجة للاصلاح الإداري الذي قام به برقوق في أوائل سلطنته ، وهو الإصلاح الذي ترتب عليه ارتفاع رتبة الاستادارية الكبرى على حساب الوزارة التي كانت قد أعيدت في الفترة السابقة على ذلك . فقد انكمشت الاختصاصات المالية للوزارة في أضيق الحدود ، وانحطت عن ذي قبل . وهذا ما استفادت منه كتابة السر ، فعلت

رتبتها على رتبة الوزارة وصارت منزلة كاتب السر فوق منزلة الوزير في مجلس السلطان .

ومما ساعد على ارتفاع رتبة كاتب السر على هذا النحو ، وبالتالي تزايد اختصاصه ، أن كتابة السر ، تولاها في عهد الناصر فرج شخصيات فذة مثل فتح الدين فتح الله ، وسعد الدين إبراهيم بن غراب ، فقد نجح كلاهما بما جبل عليه من مهارة سياسية وقدرة عملية في أن يستفيد من طبيعة هذه الفترة المضطربة وأن يختص بالسلطان ويتمكن منه ، وأن يصبح في نهاية الأمر صاحب الحل والعقد في الدولة . كما تولاها في عهد المؤيد شيخ ناصر الدين محمد بن البارزي وكان ذا حظوة كبيرة لديه ، ولذلك ظلت كتابة السر محتفظة بالمكانة الرفيعة والاختصاصات الخطيرة التي كانت قد تحققت لها في الفترة السابقة .

كما تحقق لها أكثر من ذلك في الفترة التالية من عصر المماليك ، وأصبح كاتب السر أرفع أرباب الوظائف الديوانية ، بل أصبح يتقدم على الوزير من حيث الرتبة والمكانة بعدة مراتب .

هذا ويتعذر على الباحث متابعة التطور المتزايد في اختصاصات كاتب السر في عصر المماليك البحرية ، فالمصادر الخاصة بصناعة الإنشاء ونظم الحكم في هذا العصر الأول من الدولة المملوكية لا تساعدنا على القيام بذلك(١) . غير أن الأمر يصبح ميسوراً للباحث بعد أن استقرت هذه الاختصاصات واتخذت صورتها النهائية في أوائل عصر المماليك الجراكسة ذلك أن المصادر

---

١ ـ هذه المصادر هي موسوعة مسالك الابصار في ممالك الامصار ، وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، وكتاب التثقيف لتقى الدين عبد الرحمن بنالقاضى المجى ناصر الجيوش المنصورة · عن هذه المصادر ـ انظر :
— G. DEMOMPYNES : Op. Cit, p. IV, XII-XIII

المعاصرة لهذه الفترة والمصادر المتأخرة عليها أخذت تستفيض في ذكر هذه الاختصاصات . وعلى رأس هذه المصادر كتاب «صبح الأعشى في صناعة الانشا» للقلقشندي ، وكتاب «المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الانشا» للخالدي .

فالقلقشندي إلتحق بديوان الإنشاء في سنة ٧٩١ هـ وظل يباشر العمل به حتى سنة وفاته على وجه التقريب(١) . أي أنه كان معاصراً للتطور الأخير الذي صاحب رتبة كاتب السر منذ عهد برقوق حتى عهد المؤيد شيخ . ولهذا فهو يعتبر خير من ننقل عنه اختصاصات كاتب السر حسبما استقرت عليه في هذه الفترة .

والخالدى هو أيضاً أحد الكتاب الذين عملوا بديوان الإنشاء ، ومن هذا يستمد كتابه المقصد الرفيع الذي ألفه في أوائل سلطنة الأشرف إينال قيمته الكبرى . وهو ينقل معظم مادة كتابه عن كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » الذي ألفه شهاب الدين أحمد بن فضل الله في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وكتاب « تثقيف التعريف » الذي ألفه القاضي تقي الدين عبد الرحمن بن القاضي المحبي ناظر الجيوش المنصورة في الثمانينات من القرن الثامن الهجري . غير أنه كان حريصاً على أن يبرز ما حدث من تطور في زمانه في كل أمر من الأمور التي يتحدث عنها . وهو فضلا عن ذلك آخر من اختص من مؤرخي مصر المملوكية بالكتابة في صناعة الإنشاء ونظم الحكم ولذلك فهو يعتبر خير من ننقل عنه اختصاصات كاتب السر حسبما استقرت عليه آخر الأمر في الفترة الأخيرة من حياة الدولة المملوكية .

هذا وقد اتضح لي بعد قراءة ما كتب في موسوعة صبح الأعشى ، وفي مخطوطة المقصد الرفيع عن اختصاصات كاتب السر ونظام العمل في

١ ـ احمد دراج : الجانب الاثرى فى كتاب صبح الاعشى ، بحث منشور فى كتاب : أبو العباس القلقشندى وكتاب صبح الاعشى الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ١٠٩ـ١١٢ .

ديوان الإنشاء في العصر المملوكي أن ما كتبه الخالدي – في هذا الصدد – يفوق من حيث الأهمية ما كتبه القلقشندي .

فالخالدي كان دقيقاً ومنظماً في تحديد هذه الاختصاصات بأنواعها المختلفة ، غير أن وصفه لكل نوع من هذه الاختصاصات غالباً ما كان يتصف بالايجاز . وهذا الإيجاز إذا كان مفهوماً في ضوء حجم كتابه إذا قيس بموسوعة صبح الأعشى من حيث الحجم والكم ، وإذا كان مفهوماً أيضاً لمعاصريه ، إلا أنه بالنسبة للقارىء في زماننا يتسم في بعض الأحيان بعدم الوضوح الفكري . فالخالدي إذا كان قد أوجز في كتابه فلأنه ليس أول الكتّاب الذين كتبوا في صناعة الإنشاء وعن ديوان الإنشاء ، ومن ثم كان الإيجاز بالنسبة لمعاصريه أمراً مستحباً .

وأما القلقشندي فقد أعطانا في هذا الموضوع مادة ضخمة ، ولكنها مبعثرة بين أجزاء موسوعته الأربعة عشر . هذا فضلا عن أنه ينقصها عنصر الدقة والتحديد الذي يتميز به ما كتبه الخالدي في هذا الصدد . غير أن القلقشندي بوصفه المسهب والمدعم بذكر الكثير من الأمثلة يفيدنا كثيراً في فهم ما نعجز عن فهمه من وصف الخالدي الموجز . ومن ثم فإن المصدرين بالنسبة لموضوع بحثنا يكمل كل منهما الآخر .

فالقلقشندي يفرد الفصل الثالث من الباب الخامس بالجزء الأول من صبح الأعشى للحديث عما يتصرف فيه كاتب السر برأيه وحسن تدبيره وما يتصرف فيه بقلمه(١) . ثم يعود في الجزء السادس من كتابه فيتحدث ضمن حديثه عن (بيان المستندات وكتابة الملخصات وكيفية التعيين) مما يتصرف فيه كاتب السر بقلمه ، وهو التوقيع والتعيين وكتابة الملخصات(٢) .

---

١ – صبح الاعشى ، الجزء السادس ، ص ١٩٧–٢١٦ .
٢ – صبح الاعشى ، الجزء السادس ، ص ١٩٧–٢١٦ .

ثم يفرد الفصل الرابع من الباب الخامس بالجزء الأول من الكتاب للحديث عن أصحاب الوظائف بديوان الإنشاء في الزمن القديم وفي زمانه(١) . هذا بالإضافة إلى أنه كثيراً ما يتحدث عن صاحب ديوان الإنشاء واختصاصاته واختصاصات أعوانه من المباشرين بالديوان في مواضع متفرقة من موسوعته(٢).

أما الخالدي فإنه يخصص القسم الرابع من أقسام كتابه الثلاثة عشر للحديث عما يتصرف فيه كاتب السر ، وهو يشتمل على ثلاثة أبواب :

الأول : ما يتصرف فيه بنظره وحسن تدبيره .

الثاني : ما يتصرف فيه بقلمه .

الثالث : في ترتيب ما كان عليه ديوان الإنشاء قديماً وما هو عليه في زمانه(٣) .

و فضلا عن الدقة والتنظيم في عرض هذه الاختصاصات — وهو ما أشرت إليه من قبل — فإن الخالدي في وصفه لما كان عليه ديوان الإنشاء في زمانه ، أي وصفه لأصحاب الوظائف بديوان الإنشاء في زمانه واختصاص كل منهم ، يعطينا صورة أكثر إيضاحاً وأكثر تفصيلا عن تلك التي يعطينا إياها القلقشندي(٤) .

ولهذا فإن الخالدي يعتبر بالنسبة لنا المرشد الأول للتعرف على اختصاصات كاتب السر واختصاصات من يليه من المباشرين بالديوان ، ثم يليه القلقشندي وخاصة إذا ما احتاج الأمر إلى إيضاح بعض هذه الاختصاصات أو إذا ما لزم الأمر شرح ما أوجز فيه الخالدي .

---

١ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣٠ـ١٣٩ .

٢ ـ انظر حسن الباشا : المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ص ٩٢٥، الحاشية رقم ٢ .

٣ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠١ـ١٢٠ .

٤ ـ انظر بعد .

هذا ومن جهة أخرى فإن القلقشندي في عرضه لما كان عليه ترتيب ديوان الإنشاء في الزمن القديم يذكر أنه ينقل ذلك عما أورده أبو الفضل الصوري في تذكرته(١) . كما أن الخالدي في عرضه لهذا الجزء إنما ينقل عن القلقشندي ويردد ما ذكره نقلا عن أبي الفضل الصوري(٢) .

وفي الواقع أن القلقشندي ينقل هذا الجزء عن كتاب « قانون ديوان الرسائل » لابن منجب الصيرفي الذي عمل بديوان الإنشاء في العصر الفاطمي مدة طويلة ثم آلت إليه رئاسته في عهد الخليفة الحافظ لدين الله ، وظل بها حتى أدركته الوفاة سنة ٥٤٢ هـ . وقد ألف كتابه باسم الوزير أبي علي أحمد الملقب بكتيفات ، ابن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي(٣) . ومن الجائز أن يكون ابن منجب الصيرفي هو الذي ينقل عن أبي الفضل الصوري ، أو أن أبا الفضل الصوري هو الذي ينقل عن منجب الصيرفي ، فهذه قضية لم نستطع البت فيها لأن شخصية أبي الفضل الصوري لا تزال مجهولة لنا ، وبالتالي فإننا لا نعرف شيئاً عن تذكرته التي ينقل عنها القلقشندي .

وبمراجعة ما ذكره القلقشندي عن ترتيب ديوان الإنشاء في الزمن القديم على الفصول التي خصصها ابن منجب الصيرفي في كتابه عن الكتاب بديوان

---

١ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣٠ .
٢ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٢ .
٣ ـ ابن منجب الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ، حققه على بهجت القاهرة سنة ١٩٠٥م . انظر مقدمة الناشر ص ٨ـ١٥ : يذكر على بهجت أن ابن الصيرفى قدم كتابه الى الوزير الافضل ابن بدر الجمالى وأنه ظل يعمل بديوان الانشاء حتى سنة ٥٣٦هـ والصحيح انه قدم كتابه الى ابن الافضل ابى على أحمد ، وأنه ظل يعمل بديوان الانشاء حتى وفاته فى سنة ٤٥٢هـ ـ انظر : ـ الشيال : مجموعة « الوثائق الفاطمية » ، ص ٩ـ١٠ ، ص ٩١ حاشية رقم ٢ ، ص ١٠٧ حاشية رقم ٣ .

الإنشاء وطبيعة عمل كل منهم ، يتضح لنا صحة هذه الحقيقة ، فالقلقشندي يكاد يردد ما ذكره ابن منجب الصيرفي في هذا الصدد حرفاً حرفاً . غير أن هذا النقل الحرفي يتسم في بعض الأحيان بالقصور ، فأحياناً يعمد القلقشندي إلى الإيجاز في النقل ، وأحياناً أخرى يسقط بعض الفقرات من النص الذي ينقله(١) .

ولما كان هذا الجزء عن أصحاب الوظائف بديوان الإنشاء في الزمن القديم يوضح كل الإيضاح بيان نظام العمل في ديوان الإنشاء ، بل إنه يعتبر أكثر إيضاحاً في بيان ذلك عن الجزء التالي له والذي يتحدث فيه القلقشندي عن أصحاب الوظائف بديوان الإنشاء في زمانه ، فإن الأمر يقتضي منا العودة إلى النص الأصلي لابن منجب الصيرفي إذا ما استلزم الأمر ذلك(٢) .

هذا وقبل أن نبدأ الحديث عن اختصاصات كاتب السر في العصر المملوكي يجدر بنا أن ننوه إلى الفصل الذي جاء في كتاب قانون ديوان الرسائل عما يختص متولى ديوان الرسائل بالنظر فيه من الأعمال التي لا يقوم بها غيره . فهذه الاختصاصات التي كانت لمتولى ديوان الرسائل في العصر الفاطمي لا تخرج في مجموعها عن النظر في الكتب الواردة وكتابة الأجوبة عليها ، والنظر في كل مايصدر عن ديوان الإنشاء من السجلات والمناشير والأمانات والتقاليد وغيرها ، والإشراف على سير العمل في الديوان(٣) . وسيتضح لنا بعد أن نقوم بعرض اختصاصات كاتب السر في الدولة المملوكية ، مدى الفارق الكبير بين اختصاصات كل من الوظيفتين . بل إننا نستطيع أن نقرر ،

---

١ ـ انظر بعد ٠

٢ ـ انظر بعد (ترتيب أرباب الوظائف بديوان الانشـــاء بالديار المصرية) ٠

٣ ـ أبى منجب الصيرفى ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ـ١١٦ ٠

في ضوء ذلك ، مع أبي المحاسن بن تغري بردي أن وظيفة كتابة السر تعتبر وظيفة مستحدثة في الدولة المملوكية(١) .

(ما يتصرف فيه كاتب السر برأيه وحسن تدبيره)

فالخالدي في عرضه لهذه الاختصاصات التي أفرد لها القسم الرابع من أقسام كتابه ، يفرق بين الاختصاصات التي يتصرف فيها كاتب السر برأيه وتدبيره ، أي التي يزاولها بنفسه نظراً لخطورتها وأهميتها الكبرى وارتباطها بمصالح الدولة ، والاختصاصات التي يتصرف فيها بقلمه ، أي ما يشير به فيما يعرض عليه من موضوعات ويترك أمر تنفيذ ذلك إلى مساعديه ، وأخيراً تلك التي يختص بها كل من يعمل تحت رئاسته من أصحاب الوظائف بالديوان(٢) .

فما يتصرف فيه كاتب السر بنظره وحسن تدبيره فقد عدد منها الخالدي ثمانية أنظار . وأما القلقشندي فإنه يجمع بين ما يتصرف فيه كاتب السر برأيه وتدبيره وما يتصرف فيه بقلمه ، وقد عدد منها اثنى عشر أمراً ، وبمقارنة ما ذكره الخالدي والقلقشندي في هذا الصدد . نستطيع أن نعرف ما كان يتصرف فيه كاتب السر برأيه وتدبيره زمن الخالدي (أي منتصف القرن التاسع الهجري على وجه التقريب) ، ثم زمن القلقشندي (أي أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري) ، ونعرف أيضاً مما ذكره القلقشندي ما يتصرف فيه بقلمه من أمور .

فالخالدي يعدد الثمانية أنظار حسب ترتيب أهميتها على هذا النحو(٣) :

١ ــ النظر في الرسل المتوجهين من السلطان إلى ملوك الأرض شرقاً وغرباً.

٢ ــ النظر في أمر البريد .

---

١ ــ انظر قبل الباب الثانى ، ص ٥١ .

٢ ــ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠١ــ١٢٠ .

٣ ــ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠١ــ١٠٥ .

٣ ـ النظر في أمر السعاة والنجابة وحاملي الملطفات(١) والجواسيس .

٤ ـ النظر في الفداوية .

٥ ـ النظر في المهمندارية والتراجمة .

٦ ـ النظر فيما تتفاوت به المراتب والمكاتبات والولايات من قطع الورق وخطة الافتتاح والدعاء والألقاب .

٧ ـ النظر في رد الأجوبة .

٨ ـ النظر في أمر الحمام الرسائلي المعد لحمل البطاقة .

• وأما القلقشندي فيذكر مما يتصرف فيه كاتب السر برأيه وتدبيره وبقلمه اثنى عشر أمراً ، عددها على هذا النحو(٢) :

١ ـ التوقيع والتعيين . وموضوعه الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده كاتب السر من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدث في المظالم ، وهو كما يقول القلقشندي أمر جليل ، إذ هو سبيل الإطلاق والمنع ، والوصل والقطع ، والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والتعلقات السنية(٣) .

وواضح أن هذا الأمر مما يتصرف فيه كاتب السر بقلمه .

٢ ـ النظر في الكتب الواردة عليه ـ ونظراً لكثرة مشاغل كاتب السر وحضوره عند السلطان في بعض الأوقات لقراءة الكتب الواردة وتقرير ما يجاب به عن كل منها احتاج أن يرد أمرها إلى كاتب يقوم مقامه(٤) .

وهذا الأمر مما يتصرف فيه أيضاً كاتب السر بقلمه .

---

١ ـ عن الملطفات ، انظر بعد .
٢ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١١٠ـ١٢٩ .
٣ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١١٠ـ١١١ .
ـ عن التوقيع على الرقاع والقصص ، انظر بعد .
٤ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١١١ .

٣ ـ النظر في رد الأجوبة على الكتب الواردة على لسانه . ومن أهم ما يلزمه في هذا الصدد أشعار الملك بما يراه من الأمور الصائبة وإعلامه أن من أعظمها خطراً أن يصدّر جواب كل كتاب يصل إليه في يومه ولا يؤخره إلى غده ويؤرخ في آخر ه بتاريخ ذلك اليوم(١) .

وهذا الأمر مما يتصرف فيه كاتب السر برأيه وحسن تدبيره . ويلاحظ أنه يقابل النظر السابع مما ذكره الخالدي من أنظار ، كما يلاحظ أن تأخر ترتيبه إلى هذه المرتبة السابعة في زمن الخالدي يرجع إلى أهمية ما سبقه من أنظار أخرى .

٤ ـ النظر فيما تتفاوت به المراتب في المكاتبات والولايات من الافتتاح والدعاء والألقاب ، وقطع الورق ونحو ذلك(٢) .

وهذا الأمر مما يتصرف فيه كاتب السر برأيه وحسن تدبيره ، وهو يقابل النظر السادس مما ذكره الخالدي من أنظار .

٥ ـ نظره فيما يكتب عن ديوانه وتصفحه قبل إخراجه من الديوان(٣).

وواضح أن هذا الأمر مما يتصرف فيه كاتب السر بقلمه .

٦ ـ نظره في أمر البريد ومتعلقاته ، وهو من أعظم مهمات السلطان وآكد روابط الملك(٤) .

وهذا الأمر مما يتصرف فيه كاتب السر برأيه وحسن تدبيره ، ونظراً لأهميته فقد جاء ترتيبه الثاني فيما ذكره الخالدي من أنظار .

---

١ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١١١ـ١١٢ .
ـ يردد القلقشندى فى ذلك الامر ما ذكره ابن منجب الصيرفى عنه بالحرف (انظر قانون ديوان الرسائل ، ص ١١٢) .
٢ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١١٢ـ١١٣ .
٣ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣٣ .
٤ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١١٤ـ١١٨ .

٧ – نظره في أمر أبراج الحمام ومتعلقاته(١) .

وهذا الأمر يتصرف فيه كاتب السر برأيه وحسن تدبيره ، وقد تأخر ترتيبه إلى المرتبة الثامنة فيما ذكره الخالدي من أنظار .

٨ – نظره في أمور الفداوية . والفداوية هم من بقايا الحشيشية بالشام .

ويذكر القلقشندي عنهم أنهم يعتقدون أن كل من ملك مصر كان مظهراً لهم ، ولذلك يتولونه ويرون إتلاف نفوسهم في طاعته لما ينتقل إليه من النعيم الأكبر بزعمهم . ولصاحب مصر بمشايعتهم مزية يخافه بها أعداؤه لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي إن قتل بعده ، ومن بعثه إلى عدو له فجبن عن قتله قتله أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه . وكانت السلاطين في الزمن المتقدم تمنع هؤلاء من مخالطة الناس فلا يخرجون من بلادهم إلى غيرها إلا من رُسم له بالخروج لما يتعلق بالسلطان ولا يمكن أحد من التجار من الدخول إلى بلادهم لشراء قماش وغيره . وكان يكتب بذلك مراسيم من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ويوجه بها لنائب الشام(٢) .

وهذا الأمر يتصرف فيه كاتب السر برأيه وحسن تدبيره ، وهو يقابل النظر الرابع فيما ذكره الخالدي من أنظار .

هذا و قد ظل سلاطين المماليك حتى الفترة المتأخرة من دولتهم يعتمدون على الفداوية في تحقيق ما يعجزون عن تحقيقه بحد السيف . ومن الأمثلة التي حفظها لنا التاريخ ما قام به السلطان خشقدم من إرسال أحد الفداوية للتخلص من الأمير الدلغادري أرسلان بك الذي كان قد خرج على الدولة المملوكية .

---

١ – صبح الاعشى ، الجزءالاول ، ص ١١٨–١١٩ .
– انظر قبل ما سبق ذكره عن الحمام الرسائلى فى الباب الثالث ، ص ٦٣–٦٤ .

٢ – صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١١٩–١٢٢ .

فقد استطاع هذا الفداوي أن ينقض على أرسلان بك وهو يخطو داخل جامع مرعش ليؤدي صلاة الجمعة(١) .

٩ ــ نظره في أمر العيون والجواسيس . وهذا جزء عظيم من أس الملك وعماد المملكة ، وعلى كاتب السر مداره وإليه رجوع تدبيره واختيار رجاله وتصريفهم ، فيجب عليه الاحتياط في أمر الجواسيس أكثر مما يحتاط في أمر البريدية والرسول ، لأن الرسول قد يتوجه إلى الصديق وقد يتوجه إلى العدو ، والجاسوس لا يتوجه إلا إلى العدو وإذا وثق بجاسوسه فإنه إلى ما يأتي به صائر وعليه معتمد(٢) .

١٠ ــ نظره في أمور القصّاد الذين يسافرون بالملطّفات(٣) من الكتب . فإذا طرأ مهم سلطاني يقتضي إيصال ملطف معاتبة عن الأبواب السلطانية إلى بعض النواحي وتعذر إيصاله على البريد لحيلولة عدو في الطريق أو انقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لعارض ، انتدب كاتب السر بأمر السلطان من يعرف بسرعة المشي وشدة العدو للسفر ليوصل ذلك الملطف المكتوب إليه والاتيان بجوابه(٤) .

وهذان الأمران مما يتصرف فيه كاتب السر برأيه وحسن تدبيره ، وهما يقابلان النظر الثالث مما ذكره الخالدي من أنظار .

---

١ ــ انظر أحمد دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ١٩٥٩م . ص ٢٠٩ .
٢ ــ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٢٣ــ١٢٦ .
٣ ــ الملطفات هى الرسائل التى كانت تكتب عادة الى الامــــراء للترضية والمدح أو التعــزيز والتأمين ، تمهيــدا لمــا يزمعه لهم السلطان من عقوبة أو قتل . (انظر عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤٥٤) .
٤ ــ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٢٦ــ١٢٧ .

١١ — نظره في أمر المناور والمحرقات ، فبواسطة المنارات والمحرقات كانت الأخبار تبلغ من مناطق الحـــدود بين مصر وبلاد التتـــار ، و ذلك بإشعال النيران في أمكنة مرتبة برؤوس جبال عالية بها أقوام يقيمون بها . وقد بطل حكم ذلك من حين وقوع الصلح بين ملوك مصر وملوك التتار في سنة ٧٢٠ هـ (١) .

هذا ومن الطبيعي أن الخالدي لم يذكر هذا النظر فيما ذكره من أنظار لكاتب السر فيما يتصرف فيه برأيه وحسن تدبيره .

١٢ — نظره في الأمور العامة مما يعود نفعه على السلطان وعلى المملكة . وفي هذا يقول القلقشندي أن من كان بهذه الرتبة من السلطان والقرب منه يجب عليه أن لا يألوه نصحاً فيما يعلم أنه أصلح لمملكته وأعمر لبلاده وأرغم لأعاديه وحساده وأثبت لدولته وأقوى لأسباب مملكته . فإذا انتهى إلى صاحب الديوان خبر يتعلق بجلب منفعة إلى المملكة أو دفع مضرة عنها ، أطلع السلطان عليه في أسرع وقت وأعجله قبل فوات النظر فيه وإبداء الرأي الصائب فيه ، ثم رد النظر فيه إلى رأي السلطان ليخرج عن عهدته . وإن ارتاب في خبر المخبر أحضره معه إلى السلطان ليشافهه فيه حتى يكون بريئاً عن تبعيته ، ولا يهمل تبليغ خبره بمجرد الريبة لاحتمال صحته في نفس الأمر فيلحق بواسطة إهماله ضرر لا يمكن تداركه ، وكذلك الحال في سائر ما يرجع إلى صلاح المملكة وحسن تدبيرها(٢) .

---

١ ــ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٢٧ــ١٢٨ .
ــ عن الصلح بين الناصر محمد وسلطان المغول سعيد بهادر انظر دراج : ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحـر الاحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ، محاضرة القيت ضمن المحاضرات العامة للجمعية المصرية للدراســات التاريخية ، الموسم الثقافى ١٩٦٧ــ١٩٦٨م ص ٢٠٩ .
٢ ــ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٢٨ــ١٢٩ .

وهذا الأمر من أهم ما يتصرف فيه كاتب السر برأيه وحسن تدبيره ، وإن كان القلقشندي أورده في نهاية ما نسبه آليه من أمور .

وبعد هذا العرض لما ذكره كل من الخالدي والقلقشندي مما يتصرف فيه كاتب السّر برأيه وحسن تدبيره يتضح أن الخالدي أسقط ، فيما ذكره من أنظار ، هذا الأمر الثاني عشر الذي ذكره القلقشندي . وحيث أن هذا الأمر المهم نشأ مع نشأة وظيفة كتابة السر ، بل إنه كان من أخص مستلزمات إنشائها فقد وجب إضافته إلى ما ذكره الخالدي في هذا الصدد .

كما يتضح أيضاً أن الخالدي في عرضه لهذه الأنظار المنوطة بكاتب السر تحدث عن اثنين منها لم يتحدث عنهما القلقشندي وهما : النظر في الرسل المتوجهين من السلطان إلى ملوك الأرض شرقاً وغرباً (رقم ١) والنظر في المهمندارية والتراجمة (رقم ٥) . وهذا يعني أن هذين النظرين مما استجد من اختصاصات كاتب السر خلال الفترة التالية للقلقشندي والسابقة على الخالدي .

فأما النظر الأول منهما فهو من أهم مقاصد الملك . وكان الخلفاء والسلاطين والملوك يهتمون باختيار قصادهم لأنه في الكثير من الأحيان كان يكتفي في الكتاب الذي يحمله القاصد بذكر عبارات الود والمحبة ونحوها ، ويترك أمر تبليغ الرسالة إلى القاصد مشافهة عن ملكه خوفاً من وقوع الكتاب في يد العدو فيعرف أسرار المملكة (١) . وليس ثمة شك أن كاتب السر بحكم اطلاعه على أسرار المملكة ، وبحكم معرفته بأحوال الممالك الأخرى(٢)

---

١ ــ صبح الاعشى ، الجزء التاسع ، ص ٢٢٩ــ٢٤٨ (فصل فى اخفاء ما فى الكتب من السر) .

٢ ــ من أهم المقاصد التى كتب من أجلها شهاب الدين أحمد بن فضل الله « مسالك الابصار فى ممالك الامصار » هو التعريف بأحوال الممالك المعروفة فى زمانه ، ليكون ذلك فى خدمة صاحب ديوان

ومعرفته بمصطلح المكاتبات في دواوين الإنشاء بها(١) ، يعتبر خير من يقوم باختيار الرسل والقصاد المتوجهين من سلطانه إلى ملوك الممالك الأخرى .

وأما النظر الثاني فإننا نترك الخالدي يحدثنا عنه .

فالمهمندارية جمع مهمندار ، ومعناه ممسك الضيف ، ومهمة المهمندار تنحصر في أنه إذا ما وردت البطاقة بورود قصّاد من عند أكابر الملوك أمره كاتب السر بملاقاته في جماعة من الناس حسب ماجرت به العادة لأمثاله ، وغالباً ما يكون ذلك بأمر الملك . ويستفهم المهمندار من القصّاد عن موجب حضورهم ويحضر ما على يدهم من المطالعة لكاتب السر ، إن كان ، ليكون على بصيرة فيما حضروا لأجله ، ثم يحضرهم بين يدي سلطانه . وكان في الأيام الفاطمية صاحب ديوان الإنشاء هو الذي يتسلم المكاتبة مختومة فيفضها بيده ويقرأها على الخليفة ويأمر بتنزيلها والإجابة عنها ، وإذا وجد ما خالف العادة في قَطْع الورق والألقاب والفواتح

= الانشاء وكتّاب الديوان ، انظر :

— G. Demompynes : Op. Cit, p. IV.

– وكان ذلك أيضا من أهم ما يجب توفره فى صاحب ديوان الانشاء فى العصر الفاطمى ، بل ان الامر كان يستلزم المعرفة التامة بأحوال الممالك والمسالك الموصلة اليها لمدرجة أن ابن منجب الصيرفى يذكر عن صاحب ديوان الانشاء أنه يجب عليه أن يتأمل تواريخ الكتب الواصلة ، فاذا وصل كتاب يقتضى تاريخه منذ والى أن وصل أكثر من مسافة الطريق أنكر ذلك على متولى ايصاله ، فان أقام الدليل على أنه ساعة وصل بادر باحضاره أنكر على مرسله تأخيره انكارا يردع مثله من ذلك (انظر قانون ديوان الرسائل ص ١١٣) .

١ – عن معرفة صاحب ديوان الانشاء بمصطلح المكاتبات فى دواوين الانشاء بالممالك الاسلامية الاخرى انظر ما يلى فى صبح الاعشى ، الجزء الثامن ، ص ٦٢ .

أو الترجمة فحص عن موجب ما خالفوا به العادة حتى يكون على بصيرة من ذلك فإنه ربما يقصد بالتغيير مقاصد أو يكون معرفة عن أمر حادث . ولكاتب السر الأمر إلى المهمندار بتنزيلهم الأماكن اللائقة بهم بحسب مقام مرسلهم وكذلك مضيفهم ، وإلزام المهمندار بعدم إقامتهم بعد تناول أجوبتهم يوما واحداً(١) .

وكاتب السر هو الذي يقرر للقصاد والرسل ما يكفي ضيافتهم في دار الضيافة من رواتب ومعاليم يومية ، كل على حسب مقام مرسله . وكانت تكاليف ذلك تصرف مما يقوم بجبايته ناظر دار الضيافة والأسواق من أسواق الخيل والرقيق(٢) .

وأما التراجمة فالملازم منهم للخدمة بدايوان الإنشاء ، زمن الخالدي ، ثلاثة نفر بقصد تعريب اللغة الفرنجية(٣) . وكانوا قبل الناصر فرج نفرين أحدهما يعرب ما يتلقاه من الكلام ، والثاني أمين عليه حين إعادته . والشرط فيهم أن يكونوا اسلميين ، وموصوفين بأقوى جانب من الأمانة والمناصحة والصدق وملازمة الخدمة . ويقدم منهم السابق الإقامة في بلادنا والمعروف بحسن السيرة وإخلاص المناصحة . وإذا ما وردت كتب من طوائف الفرنج إلى الديوان أحضروا إلى الديوان وفي صحبتهم كاتب لاحق

---

١ ـ هذا الاسم فارسي معرب ، ويتركب من كلمتين ، « مهمن » ومعاناها الضيف ودار بمعنى ممسك ـ انظر حسن الباشا ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٢٧١ ، والجزء الثالث ، ص ١١٥٣ .
ـ كان المهمندار ، في زمن الخالدى ، أحد أرباب الوظائف من الامراء العشروات . (انظر المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٨ أ،ب) .
٢ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠٣ـ١٠٤ .
٣ ـ انظر : المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٥ أ .
— G. DEMOMPYNES : Op. Cit, p. LXXIII.

بصفتهم فيعربون الكتب ثم يلقون بما تضمنته لأحد كتّاب الديوان فيكتبه ، وتعرض على كاتب السر ثم يقرأها على الملك ، ولا يكون أقل من نفرين لتعريب كتب أهل الكفر . ويكفي الترجمان الواحد في كتب أهل الإسلام . ولكاتب السر النظر فيهم والفحص عنهم والاطلاع على مقاصدهم ومن وجده خارجاً عن الشروط منعه واستغنى عنه بغيره ممن تجتمع فيه الشروط المتقدمة الذكر(١) .

(ما يتصرف فيه كاتب السر بقلمه)

وأما ما يتصرف فيه كاتب السر بقلمه ، فقد استطعنا أن نحدد منها فيما عرضه القلقشندي من أمور إثنى عشر – الأمر الأول ، وهو التوقيع والتعيين ، والأمر الثاني وموضوعه النظر في الكتب الواردة عليه ، والأمر الخامس وموضوعه النظر فيما يكتب عن ديوانه وتصفحه قبل إخراجه من الديوان . غير أن حديث القلقشندي عن هذه الأمور الثلاثة كان يتسم بالإيجاز .

ثم عاد القلقشندي للحديث عن هذا الجانب من اختصاصات كاتب السر ولكن بطريقة غير مباشرة ، وذلك عندما تحدث عن بيان المستندات وكتابة الملخّصات وكيفية التعيين(٢) . وكان حديثه غير المباشر هذا يتسم بالتفصيل ، وهو ما نستفيد منه في شرح ما أوجز فيه الخالدي .

فالخالدي ، كعادته ، تحدث في إيجاز عن هذه الاختصاصات حديثاً

---

١ – أى اللغة اللاتينية .

٢ – صبح الاعشى ، الجزء السادس ، الباب الثالث من المقالة الثالثة (فى بيان المستندات وكتابة الملخصات ، وكيفية التعيين) ص ١٩٧–٢١٦ .

واضحاً ومنظماً . فهو يذكر في وضوح ، أن ما يتصرف فيه كاتب السر بقلمه على أربعة أنواع وهي :

١ ــ التوقيع على القصص .

٢ ــ التعيين على كتاب الديوان .

٣ ــ محل وضع التوقيع والتعيين .

٤ ــ ما يكتبه كاتب السر في جواب الملخّصات حين عرضها وأخذ الجواب عنها(١) .

فالنوع الأول : وهو التوقيع على القصص ، يعتبر من أهم اختصاصات كاتب السر وأعظم تصرفات ديوان الإنشاء وأعمها . وكان التوقيع على القصص في الزمن الأول خاصاً بالخلفاء ، ثم انتقل من الخلفاء إلى الوزراء عندما فوض هارون الرشيد جعفر البرمكي في ذلك الأمر . واستمر التوقيع على القصص من اختصاص الوزراء إلى أن انفرد كاتب السر بديوان الإنشاء عن الوزير فانتقل ذلك الأمر إليه(٢) .

* والقصة:هي ما يرفع إلى ولاة الأمور بحكاية صورة الحال المتعلق بتلك الحاجة . وسميت قصة على سبيل المجاز ، من حيث أن القصة اسم للمحكي في الورقة لا لنفس الورقة ، وقد سميت في الزمن القديم رقاعاً لصغر حجمها ، أخذاً من الرقعة في الثوب(٣) .

---

١ ــ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠٨ــ١١١ .

٢ ــ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠٨ (حدث ذلك أيضا فى العصر الفاطمى عندما تولى الصاحب جعفر بن المغربى ديوان الانشاء وانفرد به دون الوزير) .

٣ ــ صبح الاعشى ، الجزء السادس ، ص ٢٠٢ــ٢٠٤ (وصف القصة وطريقة كتابتها) .

ــ عن القصة انظر أيضا : STERN : Dp. Cit, p. 91 - 102 —

وكانت القصص التي ترفع في زمن القلقشندي(١) ، وفي زمن الخالدي أيضاً(٢) على ستة أنواع ، فأما النوع الأول منها فهو ما يرفع إلى السلطان مباشرة فيرى فيها ما يراه ويكتب بذلك على ظهر القصة . ثم تحمل القصة إلي كاتب السر ليختار أحد كتّاب الديوان ليتولى الرد عليها بمقتضى رأي السلطان ثم يقوم بتخليدها عنده ، أي حفظها لديه(٣) .

والنوع الثاني من القصص هو ما يرفع إلى كاتب السر ، فإذا كان رافع القصة من كبار القوم وقتذاك ، كأحد الأمراء أو أحد المماليك السلطانية أو أحد أصحاب الوظائف من أرباب الأقلام نظر في قصته كاتب السر ، فإن كان موضوعها يحتاج إلى مخاطبة السلطان أخذها ليقرأها عليه عند حضوره بين يديه ويمتثل ما يأمره به فيها ، ثم يختار أحد كتّاب الإنشاء ليتولى الرد عليه بمقتضى ما أشار به السلطان ويخلد القصة شاهداً عنده . وإن كان رافع القصة من آحاد الناس تسلم القصة منه مدير من مديري ديوان الإنشاء(٤) . فيضع عليها علامة له ، ثم يجمع كل مدير ما معه من القصص وترفع إلى كاتب السر . فما كان منها غير سائغ للكتابة عليه قطعه أو رده ، وما كان منها سائغاً نظر فيه وأجاب عنه بما يراه . وأما ما يستشكل عليه منها فإن الأمر يستوجب عرضه على السلطان لينظر ما يأمره به فيه ويعتمده . ثم بعد ذلك

---

١ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢٠٦ وما يليهــا (أسهب القلقشندى فى شرح هذه الانواع الستة) .

٢ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠٩ (اكتفى الخالدى بتعداد ما يتبع فى الجواب على أنواع القصص التى كانت ترفع فى زمانه ، وهى نفس الانواع الستة التى ذكرها القلقشندى) .

٣ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢٠٦ .

٤ ـ أطلق ذلك الاسم عليهم لدوراتهم على كتّاب الديوان لاحضــار ما عندهم من الكتابة المتعلقة بالديوان ، وهم أشبه بالســعاة فى أيامنا .

ـ انظر بعــد .

يعين أحد كتاب الإنشاء ليتولى كتابة الرد على القصة حسبما استقر عليه رأي كاتب السر أو رأي السلطان ، ثم يخلد القصة عنده شاهداً(١) . والواجب على كاتب السر – في مباشرته التوقيع على القصص – أن يقدم خوف الله تعالى ويقصد براءة ذمة سلطانه وذمته ، ويتبع الحق القويم والطريق المستقيم ، ويقضي في جميع ذلك بما تأمر به الشريعة المطهرة(٢) .

وقد أفرد أبي الصيرفي لهذا الجانب من العمل بديوان الإنشاء فصلا أوضح لنا فيه مدى ما يعانيه المتظلمون من قلة احتفال الكتّاب بهم وتضييع رقاعهم أو الضجر منهم ، أو التوقيع على ما يرفع إليهم من رقاع المظالم بما لا ينفع ولا يفيد . وقد ذكر لنا ، على سبيل المثال ، بعض التوقيعات التي جرى العرف على كتابتها على رقاع المظالم في عهده . فمن هذه التوقيعات « يعرض » أو « يجدد عرضها » فتعاد إلى أصحابها ، فإذا ما كتبوا غيرها وقع عليها بمثل ذلك أيضاً . ومنها « لا سبيل إلى ذلك » ويعلق ابن الصيرفي على ذلك ساخراً بقوله « وهي لفظة قد اعتادوها حتى لو التمس نصراني أن يسلم أو مسلم أن يبني مسجداً من ماله في أرض مباحة لا مالك لها » ويفهم مما ختم به ابن الصيرفي كلامه ، في هذا الصدد أن صاحب ديوان الإنشاء كان يفوض ذلك إلى أحد كتّاب الديوان ، ولذلك فإنه يقول أنه يجب ألا يتولى مهمة التوقيع على القصص إلا صاحب الديوان ، فإذا ما منعه عارض عنها فيجب أن يختار لها كاتباً كافياً مسلماً ناهضاً ديناً ، جيد الخط والفهم يتقي الله تعالى في أموره ويؤثر آخرته على دنياه(٣) .

والنوع الثالث من القصص هو ما يرفع بدار العدل عند جلوس السلطان

---

١ – صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢٠٦–٢٠٧ .
٢ – المقصد الرفيع ، ورقة ١٠٨ .
٣ – قانون ديوان الرسائل ، ص ١٥٠–١٥٦ (فصل فى التوقيعات فى رقاع المظالم خاصة) .

للنظر في المظالم(١) فإذا ما عقد المجلس تفرق القصص على كاتب السر ومن حضر معه من كتاب الدست . فيقرأ كاتب السر منها ما عن له قراءته ، ثم يقرأ الذي يليه من كتاب الدست ثم الذي يليه إلى آخرهم(٢) ، ويشير السلطان برأسه أو بيده بإمضاء ما شاء منها ، فيكتب كاتب السر أو كاتب الدست على تلك القصة بما أشار به السلطان . ثم تحمل القصص إلى ديوان الإنشاء حيث يقوم كاتب السر بتوزيعها على من يشاء من كتّاب الإنشاء ليكتب الرد وفق ما تقرر في شأنها وبعد ذلك يخلد القصة عنده شاهداً(٣) .

والنوع الرابع من القصص هو ما كان يرفع لنائب السلطنة . وقد جرت العادة أن النائب يكون عنده كاتب من كتّاب السر يجلس بين يديه — كما يجلس كاتب السر بين يدي السلطان — لقراءة القصص عليه وكتابة ما يشير به على ظهر كل قصة ثم تحمل القصص إلى كاتب السر ليختار من كتّاب الديوان من يتولى الرد عليها وفق ما أشار به النائب ، ثم تخلد عنده . ولما بطلت نيابة السلطنة بطل هذا النوع من القصص(٤) .

والنوع الخامس من القصص ما كان يرفع إلى أتابك العسكر ، وهو الأمير الكبير وهذه الوظيفة حادثة في عصر المماليك الجراكسة . وكان يتبع في قراءة القصص مع الأمير الكبير ما كان يتبع مع نائب السلطنة(٥) .

وأما النوع السادس من القصص فهو ما كان يرفع إلى الدوادار الكبير ليعلق عنه الرسالة بما يشير به السلطان . وقد سبق أن شرحنا ذلك في معرض

---

١ — انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ٥٩—٦٠ .
٢ — عن كتاب الدست وجلوسهم فى مجلس السلطان ، انظر بعد
٣ — صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢٠٧ .
٤ — صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢٠٨ .
٥ — صبح الاعشى ، نفس الجزء ، والصفحة .

الحديث عن اختصاصات الدوادار الكبير(١) . وفي عصر المماليك الجراكسة بطل تعليق الرسالة عن الدوادار الكبير لأن كاتب السر أصبح هو الذي يتلقى الرسالة شفاها من السلطان(٢) .

* وأما النوع الثاني مما يتصرف فيه كاتب السر بقلمه فهو التعيين على كتاب الديوان . ويذكر الخالدي أن التعيين على كتّاب الديوان كان على ثلاثة مراتب :

المرتبة الأولى التعيين على كتّاب الدست . ورسم وضع التعيين على أحدهم « المولى القاضي » فلان « الدين » « الفلاني » ، ويدعى له دعوة واحدة مثل « أعزه الله تعالى » وأما مشايخ العلم منهم فيدعى له « أجله الله تعالى » .

والمرتبة الثانية التعيين على من يطلق عليه اسم توقيع الدست ولم يبلغ المرتبة السابقة ، ومن في هذه المرتبة يقتصر في التعيين عليه بالمولى القاضي « فلان » الدين الفلاني من غير دعاء له .

والمرتبة الثالثة التعيين على كتاب الدَّرْج . ورسم التعيين للكاتب منهم « المولى فلان الدين الفلاني » وإذا كان صغيراً فيكتب له « الولد فلان الدين » من غير المولى ، وربما كتب « فلان الدين » من غير المولى ولا الولد ، وهي أقل الرتب . فإن كان أخ أو ولد لصاحب دواوين الإنشاء كتب له الأخ أو الولد ثم كتب « فلان الدين » من غير المولى . وهذه الرتبة أحق من يكون فيها أولاد الموقعين (أي كتاب الدست) دون غيرهم(٣) .

والمقصود بالتعيين على الكتّاب ، في مصطلح ذلك العصر ، هو توزيع العمل على كتّاب كل طبقة من طبقات الكتّاب حسب ما استقر عليه الأمر

---

١ ـ انظر الباب الثالث ، ص ٦٥ .
٢ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١١ .
٣ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠٩ـ١١٠ .

بالنسبة لاختصاصات كل منها ، وحسب ما يراه كاتب السر . فالتعيين على الكتاب يختلف باختلاف حال الكاتب المعين عليه وحال الرقعة المعينة(1) .

*وأما النوع الثالث مما يتصرف فيه كاتب السر بقلمه فهو محل وضع كتابة التوقيع والتعيين ، وهو كما ذكر الخالدي على ضربين :

- الضرب الأول محل وضع كتابة التوقيع في هامش القصة . وكتابة التوقيع على القصة في الوضع المحدد لها سابقة على كتابة التعيين . ولا يصح لكاتب الإنشاء أن يتناول القصة ليتولى الرد عنها إلا إذا اشتملت على التوقيع والتعيين فإن أملى كاتب السر جوابها من غير توقيع ولا تعيين ضاعت كتابتها(2) .

- والضرب الثاني محل وضع كتابة التعيين ، وهو على خمسة أنواع :

١ - محل وضع التعيين بعد الخط السلطاني الشريف . أي بعد ما يرسم به السلطان . وصورة كتابته « رسم بالأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه » ثم يترك بعده بياض بمقدار أربعة أصابع مطبوقة ويكتب كاتب السر تحته يكتب بمثال شريف أو نحوه إلى فلان الفلاني»(3) .

٢ - محل وضع كتابة التعيين على القوائم التي ترد من ديوان الوزارة أو ديوان الخواص الشريفة أو ديوان المفرد . فيكتب بها مش القائمة من أعلاها

---

١ - صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢١٠ .

٢ - المقصد الرفيع ، ورقة ١٠٩-١١٠ .

٣ - المقصد الرفيع ، ورقة ١١٠ .

- يضيف القلقشندى الى هذا النوع من التعيين القصص التى عليها خط النائب الكافل ، أو خط الاتابك (انظر صبح الاعشى نفس الجزء ص ٢١١ .

مقابل كتابة المتحدث على كل ديوان من هذه الدواوين ما مثاله « يكتب ذلك » ثم يكتب التعيين تحته على القرب منه(١) .

٣ ـ محل وضع التعيين على مربعات الاقطاعات الصادرة من ديوان الجيش ولا يكتب كاتب السر التعيين عليها إلا بعد توقيعات من ناظر الجيش ، وكتابة التعيين عليها تكون في آخر المربعة مقابل التاريخ من الجهة اليمنى(٢) .

٤ ـ محل وضع التعيين على القصص ولا يكون إلا في هامش القصة(٣) .

٥ ـ محل وضع التعيين على أوراق الرقاع ، وهي أوراق يكتبها كاتب السر بيده أو نائبه في غالب الأحيان ، وربما كتبها أكبر كتّاب الدست بإذنه بولايات وظائف أرباب التقاليد والمراسيم الكبار والتفاويض والتواقيع الكبار(٤) بجميع الممالك الشريفة الإسلامية . ومن أوراق الرقاع ما يختص بالمكاتبات المتعلقة بمهمات السلطنة(٥) . فما كان من ذلك جليل الخطر كولايات النواب والقضاة وأكابر الوظائف والمكاتبات المتعلقة بمهمات السلطنة فلا بد من مخاطبة كاتب السر للسلطان فيها واعتماد ما يبرز به أمره . وما كان منها حقيراً بالنسبة إلى مخاطبة السلطان فيه استقل فيه كاتب السر بما يقتضيه رأيه . وبعد أن تكتب هذه الرقاع يعين كاتب السر كاتب الإنشاء الذي يقوم بكتابتها وتعطى له لتخلد عنده شاهداً له(٦) .

---

١ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٠ .

٢ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢١١ ، وانظر أيضا ص ١٩٩ ـ٢٠٢ (ما يصدر من غير صاحب ديوان الانشاء ، أى من أصحاب الدواوين السلطانية الاخرى وتلتمس الكتب من ديوان الانشاء على مقتضاها ...) .

٣ ـ المقصد الرفيع ، نفس الورقة .
ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢١٢ .

٤ ـ المقصد الرفيع ، نفس الورقة .

٥ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١١ .

٦ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٩٧ـ١٩٨ .

وأما النوع الرابع مما يتصرف فيه كاتب السر بقلمه فهو ما يكتبه في جواب الملخصات حين عرضها على السلطان لأخذ جوابه عنها(١) . وقد جرت العادة أن الكتب الواردة إلى السلطان من داخل المملكة أو خارجها يتلقاها الدوادار الكبير ثم يحضر القاصد أو البريدي الذي يحمل الكتاب ويقدمه هو والكتاب إلى السلطان فيفضه السلطان ويعطيه لكاتب السر الجالس بين يديه ، فيقرؤه عليه وعندما ينصرف كاتب السر من مجلس السلطان يأخذ الكتاب معه إلى ديوان الإنشاء ، فإن كان الكتاب مكتوباً باللغة االعربية أعطاه كاتب السر إلى نائبه ، أو لمن يخصه بذلك من كتّاب الديوان ليلخص معناه . فإذا ما انتهى نائب كاتب السر أو أحد الكتاب من تلخيص مقاصد الكتاب كتب إلى كل ديوان من الدواوين السلطانية الخمسة(٢) ملخصاً بما ورد في الكتاب من مقاصد خاصة به ليجيب عليها متولي الديوان . فإذا جاءت الأجوبة من الدواوين وكملت الملخصات عرضت على كاتب السر ، فما كان منها خاصاً بديوان الإنشاء عرضه على السلطان لأخذ جوابه الشريف عليه ، وما كان منها متعلقاً بالدواوين السلطانية الأخرى بعث به إلى الديوان المختص ليقرأ متولي الديوان المختص ملخصه على السلطان وينتظر ما يأمر به فيه(٣) .

وإن كان الكتاب مكتوباً بلغة غير اللغة العربية تطلب الأمر ترجمته قبل عرضه على السلطان . فإذا كان مكتوباً باللغة التركية المغلية(٤) أو نحوها

---

١ ــ لمقصد الرفيع ، ورقة ١١١ .

٢ ــ الدواوين السلطانية الخمسة فى العصر المملوكى هى : ديوان الانشاء ، وديوان الوزارة ، وديوان الجيش ، وديوان الخاص ، وديوان المفــرد (انظــر صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٩٩ــ٢٠٢) .

٣ ــ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢١٥ــ٢١٦ .

٤ ــ اللغة التركية « المغلية » هى التى كان يتكلم بها ملوك التيموريين

كالكتب الواردة من بعض القانات من ملوك الشرق فإنه يتولى ترجمتها من يوثق به من الأمراء أو المماليك الخاصكية ممن يعرف هذه اللغة ، ثم بعد ذلك تقرأ الترجمة على السلطان ثم بعد ذلك ينفذ ما يأمر به(١) .

وإذا كان الكتاب مكتوباً باللغة الرومية (باليونانية) أو باللغة الفرنجية (اللاتينية) أو غيرهما من اللغات المختلفة أحضر من يعرف هذه اللغة أو تلك ممن يوثق به لترجمته ويثبت الترجمة في ظهر الكتاب . فإذا كان ذلك المترجم يحسن الخط العربي كتب بخطه في ظهر الكتاب ما مثاله (يقول فلان : أني حضرت إلى ديوان الإنشاء وتسلمت الكتاب الذي هذا الخط بظاهره ، وسئلت عن تفسيره فذكرت أنه كذا وكذا ، ويسرده إلى آخره وفي نهاية الترجمة يوقع بإمضائه ، كما يشهد عليه شاهدان . وإذا لم يكن يحسن الكتابة بالخط العربي كتب عنه كاتب بمحضر من الشاهدين وأشهد عليه ليهاب أو يحجم فيما يقول ، أو يغيره أو ينقصه لأن أكثر من يترجم على مذهب صاحب الخط ، فربما كتم عنه أو راجى فيه ، فإذا خوف بالاشهاد عليه وخشى أن غيره قد يقرؤه على غير الوجه الذي أشهد به على نفسه ربما أدى الأمانة فيه . فإذا ما تمت الترجمة على هذا النحو عهد به كاتب السر إلى نائبه أو إلى أحد كتّاب الديوان ليكتب ملخصاً له . ثم يقوم كاتب السر بقراءته على السلطان والتماس جوابه عليه ، ومايرسم به السلطان يكتبه كاتب السر على الملخص) .

ثم بعد ذلك يسلم كاتب السر الملخصات ، وعلى كل منها ما يجاب به إلى كتّاب الديوان ليتولوا كتابة الأجوبة . وعليه بعد ذلك أن يقابل الجواب بما كتب في الملخص ، فإن وجد فيه خللا سده ، أو مهملا أنكره ، أو سهواً كتبه . وان رأى الجواب كتب على أفضل وجه عرضه على السلطان ليعلم

---

١ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢١٦ .

عليه العلامة السلطانية(١) . ثم بعد ذلك تسلم الأجوبة إلى من يثبتها في الدفاتر الذي يتعين عليه ، في نفس الوقت أن يضع على كل جواب بطاقة تشير إلى مضمونه . وهذا بدوره يتولى تسليمها إلى من يتولى تنفيذها ، كما تسلم الملخصات إلى من يقوم بحفظها(٢) .

* * *

(ترتيب أصحاب الوظائف بديوان الانشاء واختصاص كل منهم)

هذا ولكي تكتمل لدينا الصورة العامة لاختصاصات كاتب السر يتعين علينا أن نلم بنظام سير العمل في ديوان الإنشاء . وهذا يقتضي منا أن نعرف ترتيب أصحاب الوظائف بالديوان واختصاص كل منهم .

وقد أفرد القلقشندي الفصل الرابع من الباب الخامس بالجزء الأول من صبح الأعشى للحديث عن هذا الجانب من العمل في ديوان الإنشاء في الزمن القديم ثم ما استقر عليه الحال في زمانه . وهذا الفصل يقابله الباب الثالث من القسم الرابع من المقصد الرفيع للخالدي(٣) . وإذا كان القلقشندي

---

١ ـ العلامة السلطانية هى توقيع السلطان ، انظر بعد .
٢ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ٢١٢ـ٢١٤ ، ص ٢١٦ . (فصل فى كتابة الملخصات والاجابة عنها من الدواوين السلطانية) . ـ فيما يختص بما كان عليه الحال فى الزمن القديم ، انظر قانون ديوان الرسائل ص ١١٦ـ١١٧ (فصل فيمن ينبغى أن يستخدم لتخريج الكتب الواردة) ص ١٣٧ـ١٤١ (فصل فيما ينبغى أن يوضع فى هذا الديوان من الدفاتر والتذاكر وصفة من ينبغى أن يعهد به ذلك) ـ عن الفصل الاول ينقل القلقشندى ما ذكره عن كتابة الملخصات ، وعن الفصل الثانى ينقل القلقشندى ما ذكره عما كان متبعا فى ترجمة الكتب المكتوبة بالخط الارمنى أو الفرنجى أو غيره) .
٣ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣٠ـ١٣٩ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠١ـ١٢٠ .

والخالدي يتفقان فيما ذكره كل منهم عن أصحاب الوظائف في ديوان الإنشاء في الزمن القديم ، لأن كلا منهما نقل عن قانون ديوان الرسائل لابن منجب الصيرفي(١) ، فإن ما ذكره الخالدي عما استقر عليه الحال في زمانه جاء أكثر دقة ، بل أكثر تفصيلا مما ذكره القلقشندي في هذا الصدد .

وإذا كان الجزء الخاص بأصحاب الوظائف في ديوان الإنشاء في الزمن القديم خارجاً عن موضوع البحث من الناحية الزمنية ، إلا أنه في واقع الأمر يوضح لنا طبيعة العمل في ديوان الإنشاء في أي زمن من الأزمان وبصرف النظر عن اختلاف اسم صاحب الديوان وأسماء الكتاب وبقية العاملين به من فترة إلى أخرى . بل لا نعدو القول إذا ما قلنا أن هذا الجزء يعتبر أوضح من حيث الدلالة – في هذا الصدد – من الجزء الثاني له الذي يتحدث فيه القلقشندي والخالدي عن أصحاب الوظائف في زمان كل منهم . ومن ثم فإنه قبل أن نتحدث عن أصحاب الوظائف في ديوان الإنشاء في العصر المملوكي ، يجمل بنا أن نستعرض – في شيء من الإيجاز – أصحاب الوظائف في الديوان في الفترة السابقة على ذلك لكي تتضح لنا الصورة الكاملة .

فالقلقشندي يذكر أن أصحاب الوظائف في الزمن القديم كانوا على ضربين : – **الضرب الأول** – الكتّاب ، وهم سبع كتّاب .

الضرب الثاني – غير الكتّاب ، وهما اثنان – الخازن وحاجب الديوان .

فأما الضرب الأول ، وهم الكتّاب ، فقد كان عددهم على هذا النحو :

---

١ – سبق أن أوضحت أن كلا من القلقشندى والخالدى انما ينقل ما أورده فى هذا الصدد عن أبى منجب الصيرفى وليس عن أبى الفضل الصورى فى مدقمة تذكرته (انظر قبل) .

* الأول : كاتب ينشيء ما يكتب من المكاتبات والولايات ويجب أن تتوفر فيه ملكة الإنشاء والفصاحة والبلاغة(١) .

* الثاني : كاتب يكتب مكاتبات الملوك عن ملكه(٢) .

* الثالث : كاتب يكتب مكاتبات أهل الدولة وكبرائها وولاتها ووجوهها من النواب والقضاة والكتاب والمشارفين والعمال(٣) .

---

١ - صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣٠ .

- قانون ديوان الرسائل ، ص ١١٨-١٢٥ (فصل فى صفة من يجب أن يستخدم برسم الانشاءات. يذكر أبى الصيرفى أن المستخدم فى هذه الخدمة يجب أن يكون لاحقا فى الصفات بمتولى الديوان ، غير أنه يذكره فى المرتبة الثانية بين مراتب الكتّاب بالديوان ، اذ أن المرتبة الاولى يخصصها للكاتب الذى يستخدم لتخريج الكتب الواردة ، أى تلخيصها قبل عرضها على صاحب الديوان (انظر ص ١١٦-١١٧ ، فصل فيمن ينبغى أن يستخدم لتخريج الكتب الواردة) . وقد سبق أن رأينا أن نائب كاتب السر فى العصر المملوكى هو الذى كان يقوم بهذا العمل (انظر قبل) .

٢ - صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣١ .

- قانون ديوان الرسائل : ص ١٢٦-١٣٠ (فصل فيمن ينبغى أن يستخدم فى المكاتبة عن الملوك الى الملوك المماثلين له والمخالفين للغته وملته) .

- أسقط القلقشندى فيما نقله عن ابن الصيرفى ما يجب أن يفهمه هذا الكاتب من معرفة الفرق بين مخاطبة الملوك الاسلامية وبين مخاطبة الملوك المخالفين له عقيدة ولسانا .

٣ - صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣١ .

- قانون ديوان الرسائل ، ص ١٣٠-١٣٢ (فصل فيمن ينبغى أن يستخدم لمكاتبة رجال الدولة وكبرائها) .

* الرابع : كاتب يكتب المناشير والكتب اللطاف والنّسخ(١) ، ومن أهم ما يجب أن يتوفر في هذا الكاتب الدقة في نسخ ما يعهد به إليه لكتابته بحيث لا تختلف النسخ عن الأصل في حرف واحد ، لأن هذه النسخ تخلّد (أي تحفظ) في الديوان لتكون موجودة متّى احتيج إليها .

* الخامس : كاتب يبيض ما ينشئه المنشيء مما يحتاج إلى حسن الخط ، كالعهود والمبيعات ونحوها(٢) .

* السادس : كاتب يتصفح ما يكتب في الديوان(٣) ، وهو بمثابة الكاتب المراجع في زماننا .

* السابع : كاتب يكتب التذاكر والدفاتر المتضمنة لمتعلقات الديوان . والذي يلزم هذا الكاتب من متعلقات الديوان أمور نلخصها في الآتي :

---

١ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣٢ ·
ـ قانون ديوان الرسائل ص ١٣٣ـ١٣٥ (فصل فيمن ينبغى أن يؤهل لكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ) ·
ـ المناشير هى الكتب الخاصة بالاقطاعات ، وأما الكتب اللطاف فهى ما يطلق عليه فى العصر المملوكى بالملطفات ، وقد سبق أن تحدثنا عنها ·

٢ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣٢ ·
ـ قانون ديوان الرسائل ، ص ١٣٤ـ١٣٥ (فصل فيمن ينبغى أن يكون منتصبا فى هذا الديوان) ·

٣ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٣٢ـ١٣٣ ·
ـ قانون ديوان الرسائل ، ص ١٣٥ـ١٣٦ (فصل فيمن ينبغى أن يستخدم متصفحا لما يكتب اعانة لمتولى الديوان) ـ القصد من ذلك أن يكون ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطا ولفظا ومعنى واعرابا ، حتى لا يجد طاعن فيه مطعنا · وهذا الكاتب بمثابة الكاتب المراجع فى زماننا ·

(أ) أن يضع في الديوان(١) تذاكر تشتمل على مهمات الأمور التي تنتهي في ضمن الكتب و يظن أنه ربما سئل عنها أو احتيج إليها فيكون استخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عليها والبحث عنها من الأضابير . وهذه التذاكر تستخرج من الكتب الواردة والكتب الصادرة فإنه إذا اعتمد هذا وجد السلطان جميع ما يسأل عنه حاضراً في وقته غير متعذر عليه .

(ب) أن يضع في الديوان دفتراً بألقاب الولاة وغيرهم من ذوي الخدمة وأسمائهم وترتيب مخاطباتهم ، وتحت اسم كل واحد منهم كيف يخاطب . وكذلك يضع فيه ألقاب الملوك الأباعد والمكاتبين من الآفاق ، وكيف يخاطب كل منهم .

(ج) أن يضع بالديوان دفتراً للحوادث العظيمة وما يتلوها مما يجري في جميع المملكة .

(د) أن يعمل فهرسا للكتب الصادرة والواردة مفصلا بالسنة والشهر واليوم ويكتب تحت كل منها اسم من ورد من جهته ، ويشير إلى مضمونه إشارة تدل عليه ، ويسلمه بعد ذلك إلى الخازن ليتولى الاحتفاظ به .

(ه) أن يعمل فهرساً للإنشاءات ، والتقاليد والأمانات والمناشير وغير ذلك مشاهرة في كل سنة بجميع شهورها .

---

١ - التذاكر جمع تذكرة ، ومعناها هنا البطائق (جمع بطاقة) التى يلخص فيها مضمون الكتب ، وهى ما يعبر عنه فى اللغة الانجليزية بكلمة Cards وفى اللغة الفرنسية بكلمة Fiches وهى الكلمة التى نقلت الى لغتنا العامية . ومن معانيها أيضا المكتوب الذى يصدر من السلطان الى نوابه وقصاده لتذكرتهم بتفاصيل ما يوكل اليهم وليكون بمثابة ورقة اعتماد عند الجهات التى يقصدونها (انظر عاشور ، العصر المملوكى ص ٤٠٠) .

(و) أن يعمل فهرسا لترجمة ما يترجم من الكتب الواردة على الديوان بغير اللسان العربي من الرومي والفرنجي وغيرهما متضمناً ملخص كل كتاب واسم من قام بترجمته(1) .

ويفهم من هذا العرض للمهام الموكولة إلى هذا الكاتب أنه هو الذي كان يتولى الثبت والقيد والفهرسة لكل مكاتبات الديوان ، وهو ما يسمى في زماننا « بكاتب الأرشيف » .

وأما الضرب الثاني من أصحاب الوظائف بديوان الإنشاء من غير الكتّاب ، فهما الخازن وحاجب الديوان — ومن الوصف الذي سجله ابن الصيرفي والقلقشندي عن الخازن وحاجب الديوان تعرف أشياء كثيرة ومهمة جداً عن عملية حفظ الرسائل والمكاتبات والوثائق بالديوان وما كان يحاط به ذلك العمل من سرية تامة للمحافظة على مصالح الدولة .

---

١ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ص ١٢٣ـ١٣٥ المقصد الرفيع ، ورقة ١١١ـ١١٢ .

ـ قانون ديوان الرسائل ص ١٣٧ـ١٤١ (فصل فيما ينبغى أن يوضع فى هذا الديوان من الدفاتر والتذاكر وصفة من ينبغى أن يعذق به ذلك) .

ـ أسقط القلقشندى فى نقله هذا الفصل عن ابن الصيرفى بعض الفقرات ففيما يختص بالامر رقم (ج) أسقط الفقرة الاتية : (يجب أن يضع تبيانا للتشريفات والخلع ليكون قدوة متى احتيج اليها ...... فاذا صرف مستخدما وعوض بغيره واستعلم الملك منه عن شىء من رسوم من كان قبله وجده متيسرا عنده حاضرا) . وفيما يختص بالامر رقم (و) الخاصة بالكتب المترجمة فقد نقل القلقشندى عن ابن الصيرفى فى الفقرة التى توضح الطريقة التى كانت تتم بها ترجمة الكتب الواردة بخطوط مخالفة للخط العربى ، وأثبتها فى الفصل الذى يوضح فيه (كتابة الملخصات والاجابة عنها فى الدواوين السلطانية) وقد أشرت الى ذلك من قبل .

فمن يختار لمهمة الخازن ينبغي أن يكون مأموناً بالغاً في الأمانة والثقة ونزاهة النفس وقلة الطمع إلى الحد الذي لا يزيد عليه فإن زمام جميع الديوان بيده فمتى كان قليل الأمانة ربما أملته الرشوة إلى إخراج شيء من المكاتبات من الديوان ، وإفشاء سر من الأسرار فيضر بالدولة ضرراً بليغاً . ويجب أن يكون ملازماً الحضور بين يدي كتّاب الديوان يتسلم منهم ما يكتب من مكاتبات بعد نسخها وإثبات التاريخ على كل منها . وكذلك يفعل بالكتب الواردة وإثبات الجواب عنها إن كان ثم جواب . ثم يجمع كل نوع إلى مثله ، ويجمع متعلقات كل عمل من أعمال المملكة من المكاتبات الواردة وغيرها ، ويجعل لكل شهر اضباره ، ويضع عليها بطاقة تشير إلى محتوياتها في هذا الشهر ثم يجمع تلك الأضبارات ويجعلها إضبارة واحدة ويكتب عليها بطاقة ليسهل عليه استخراج ما يريد أن يستخرجه منها بعد ذلك . وينبغي للخازن أن يحتفظ بجميع ما وكل حفظه إليه احتفاظاً شديداً ، وعلى الجملة فإنه يحتاج فيه أن يكون أوثق من كل من في الديوان وآمن وأنزه نفساً(١) .

وأما حاجب الديوان فمهمته ألا يمكن أحداً من سائر الناس أن يدخل إلى الديوان ما خلا المستخدمين فيه ، فإنه مجمع أسرار السلطان الخفية ، فمن الواجب كتمها . ومتى أهمل ذلك لم يؤمن أن يطلع منها على ما يكون بإظهاره سبب سقوط مرتبته وإذا كثر الغاشون له والداخلون إليه أمكن أهل الديوان

---

١ ــ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٣٥ــ١٣٦ والمقصد الرفيع ، ورقة ١١٢ ــ قانون ديوان الرسائل ص ١٤٢ــ١٤٧ (فصل فيمن ينبغى أن يستخدم خازنا لهذا الديوان وما مقتضى خدمته) ــ أسقط القلقشندى فيما نقله عن ابن الصيرفى ــ فى هذا الصدد ــ الفقرة التى جاءت فى ختام ذلك الفصل ، ونصها (ويلزم الخازن جمع كل شىء الى مثله نحو الاجوبة الديوانية والخطوط الرومية والارمنية وغيرهما مما يحتاج الى النقل والترجمة وغير ذلك مما يطول شرحه) .

معه إظهار الأسرار أشكالا على أنها تنسب إلى أولئك ، فإذا كان الأمر قاصراً عليهم احتاجوا إلى كتمان ما يعلمونه خشية أن ينسب إليهم إذا ظهر(١) .

وعلى هذا النحو نكون قد أحطنا بنظام العمل في ديوان الإنشاء في الزمن القديم . وسنرى أن نظام العمل في ديوان الإنشاء في العصر المملوكي لن يخرج عما كان عليه في الزمن القديم وإن اختلفت الأسماء والمسميات .

فالقلقشندي يقسم كتّاب ديوان الإنشاء في عصر المماليك إلى طبقتين ، وهما كتّاب الدّست ، وكتّاب الدّرج . وأما الخالدي فيقسمهم إلى ثلاث طبقات ، وهي نيابة كتابة السر ، وكتّاب الدّست ، وكتّاب الدّرج .

فنيابة كتابة السر – حسبما يذكر الخالدي ليست وظيفة دائمة ، إذ هي تشغل أحياناً وتبطل أحياناً أخرى . وغالباً يتولاها ولد كاتب السر أو أخوه أو قريبه(٢) والشرط فيه كالشرط اللازم لكاتب السّر . وهو يتصرف في كل ما يتصرف فيه كاتب السر بنظره وقلمه عند تعذر حضوره .

فإذا كان كاتب السر حاضراً اقتصر نائبه على إملاء الكتب الصادرة في المهمات السلطانية ، والوقوف على الكتب الواردة واستخراج أجوبتها إذا كان الأمر يتطلب الإجابة عنها ، وإصلاح ما يرى إصلاحه ، وإلحاق ما يرى إلحاقه منها ، ويغير ما يرى تغييره . فإذا حررت أوقف كاتب السر عليها ليراها ويعمل فيها بما يختاره(٣) .

---

١ – صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٣٦–١٣٧ والمقصد الرفيع ، ورقة ١١٢ – قانون ديوان الرسائل ، ص ١١٥–١١٦ (ورد ذلك فى الفصل الذى كتبه عما يختص بمتولى ديوان الرسائل بالنظر فيه من الاعمال التى لا يقوم بها غيره) .

٢ – انظر الباب الخامس ، ص ١٤٩ .

٣ – المقصد الرفيع ، ورقة ١١٢ .

وربما يعهد إليه كاتب السر بكتابة أوراق الرقاع وهي كما سبق أن أوضحنا أهم ما يتصرف فيه كاتب بقلمه(١) . وهذه على أربعة أصول :

الأصل الأول : التقاليد ، وهي على ضربين . الأول تقاليد أرباب الوظائف بالحضرة الشريفة مثل نيابة السلطنة المعظمة وأصحاب الوظائف الكبرى الأخرى من أرباب السيوف . والثاني أرباب التقليد بالوظائف الخارجة عن الحضرة الشريفة مثل نيابة الشام ونيابة حلب(٢) .

الأصل الثاني : المراسيم المكبرة وكتابتها تكون في قطع النصف والثلث وتكتب لناظر الحرمين الشريفين ، وكاتب السر بالديار المصرية ، وبقية النواب بالنيابات الصغيرة بالشام(٣) .

الأصل الثالث : التفاويض وتكتب لقضاة القضاه ، وهي من نمط التقاليد غير أنه يقال في تعريفها تفويض شريف(٤) .

الأصل الرابع : التواقيع الكبار ، وهي على انموذج التفاويض ، وإنما تكون لعامة أرباب الوظائف الدينية والديوانية ، عظيمها وحقيرها ، وكبيرها وصغيرها ، ولا يكتب لأرباب السيف منها إلا القليل(٥) .

الأصل الخامس : كتابة أوراق البريد للبريدية والنجابة والسعاة الذين يوجهون بالأمثلة الصادرة من الديوان في المهمات الشريفة(٦) .

---

١ ـ انظر قبل ، ص ١٠٨ وما يليها .
٢ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٢ـ١١٤ .
٣ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٤ .
٤ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٤٤ـ١٤٥ .
٥ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٥ ـ عن التقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع ، انظر أيضا صبح الاعشى ، الجزء الحادى عشر ، ص ١٠١ـ١٢٧ .
٦ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٦ .

وأما الطبقة الثانية فهي طبقة كتّاب الدست . وقد عرفوا بذلك نسبة إلى دست المملكة ، وهي مرتبة جلوسهم بين يدي السلطان بدار العدل وفي المواكب لقراءة القصص بعد قراءة كاتب السر ووفق ترتيب جلوسهم ، الأقدم فالأقدم ، ويوقعون عليها بما يرسم به السلطان مثلما يوقع عليها كاتب السر ، ثم بعد ذلك ترفع إلى كاتب السر ليعين من الكتّاب بالديوان من يتولى الرد عليها . وهؤلاء هم أحق كتّاب الديوان باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص(١) . وفي زمن الخالدي اقتصر توقيعهم على القصص في مجلس السلطان ، وكانوا من قبل يوقعون عليها في كل الأوقات . وإذا تعذر حضور كاتب السر أو نائبه ينوب أكبرهم عنهما في الجلوس بين يدي السلطان وفي مباشرة أعمال الديوان(٢) .

وكان عددهم في أوائل الدولة المملوكية ، أي قبل أن يلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر في عهد المنصور قلاوون ، ثلاثة كتّاب كان يرأسهم القاضي محي الدين بن عبد الظاهر . ثم أخذ عددهم يزداد ، فبلغوا في آخر عهد الأشرف شعبان بن حسين عشرة أو نحوها ، ثم تزايدوا بعد ذلك شيئاً فشيئاً خصوصاً في سلطنة الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج حتى

---

١ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٣٧ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠٩ .
ـ زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٠ (ويطلق عليهم اسم موقعي الدست كما يطلق على كتّاب الدرج اسم موقعي الدرج) .
ـ في القصر الفاطمي كان صاحب ديوان الانشاء يسمى بكاتب الدست الشريف ، وأما الطبقة الثانية له من الكتّـــاب ، وهم الموقعون بالقـلم الدقيق فيقابلون كتّـــاب الدست في العصر المملوكي ، ومن يليهم وهم الموقعون بالقلم الجليل يقابلهم كتّاب الدرج في العصر المملوكي ـ انظر ـ صبح الاعشى ، الجـزء الثالث ، ص (٤٩١ـ٤٩٢) .

٢ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٠٩ .

جاوزوا العشرين ، كما أخذوا بعد ذلك في التزايد . هذا ويذكر القلقشندي أن رتبة كتاب الدست على الرغم من أنها تلي رتبة كاتب السر إلا أنها قد انحطت في زمانه بعد أن دخل فيها الدخيل وقدم فيها غير المستحق ووليها من لا يؤهل لما هو دونها(١) . ويكاد يشعر القاريء بما يشعر به القلقشندي من مرارة لأنه لم يكن ينتمي إلى هذه الطبقة من الكتاب .

وأما الخالدي فإنه يزيد الأمر إيضاحاً فيما يختص بهذه الطبقة من الكتّاب فيذكر أنهم نظراً لكثرتهم – في زمانه – فقد تقاسموا العمل على نوبتين في كل أسبوع ، النوبة الأولى تبدأ من صبيحة يوم السبت وتنتهي في يوم الثلاثاء من ذلك الأسبوع ، ففي صبيحة يوم السبت يركب أفراد النوبة الأولى في خدمة كاتب السر يكتبون ما رسم لهم بكتابته في مجلس السلطان . فإذا انفض الموكب عادوا في خدمته إلى الديوان يتقاضون أشغال المملكة إلى قريباً من نصف النهار ، وكذا كل يوم حتّى يوم الثلاثاء . ولهذه النوبة رئيس من أعيان الكتّاب يقرب من مقام كاتب السر . وهو الذي يسد عن كاتب السر إذا انقطع عند السلطان ، وهو الذي يتلقى الأمور المهمة عند غيبة كاتب السر(٢) . وأما النوبة الثانية فتبدأ من صبيحة يوم الثلاثاء إلى آخر الأسبوع ، ولها رئيس من أعيان الكتّاب يكون بالصفة والشروط اللازمة في رئيس النوبة الأولى(٣) .

---

١ – صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٣٧ .
زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٠ (يذكر انه كان قديما بديوان الانشاء نيف عن أربعين موقعا ، غير أنه لم يوضح ما اذا كانوا من موقعى الدست أم من موقعى الدرج) .

٢ – المقصد الرفيع ، ورقة ١١٦ (يذكر الخالدى أن القاضى ناصر الدين العمرى هو الذى كان يراس فى زمانه النوبة الاولى) .

٣ – المقصد الرفيع ، ورقة ١١٧ (يذكر الخالدى أن القاضى ناصر الدين محمد القرشى الفاقوسى هو الذى كان يرأس – فى زمانه – النوبة الثانية) .

وكان كتاب الدست ينقسمون إلى عدة مراتب ، مرتبة أعلى من مرتبة . وفي عصر المماليك كانوا على سبع مراتب :

الأولى : كاتب ينشيء ما يعهد به إليه من الأمور المهمة كالبيعات والعهود والتقاليد وما في معناها ، ومكاتبات القانات وعظام الملوك شرقاً وغرباً . وشرطه أن يكون من عظماء البلغاء لأنه يتولى الإنشاء من نفسه ، تلقى إليه الكلمة الواحدة والمعنى الفرد فيبنى عليه ذلك الكلام الطويل وهذا الكاتب هو الذي كان يسمى بمنشيء الديوان .

الثانية : كاتب يكتب المكاتبات الصادرة للملوك شرقاً وغرباً ، وهو لاحق في الشروط بصفة الكاتب الذي تقدمه(١) .

الثالثة : كاتب يكتب مهمات الديوان من التقاليد والتفاويض والمراسيم الكبار والتواقيع ونحو ذلك ، وشرطه أن يكون لاحقاً في الصفات للكاتبين السابقين .

الرابعة : كاتب جيد الخط بجميع الأقلام ، يكتب ما ينشأ بالديوان من الأمور المهمة .

الخامسة : كاتب يكتب المنشورات الاقطاعية المرسوم بإخراجها من ديوان الجيوش المنصورة ، وشرطه أن يكون لاحقاً بصفة من سبقه من الكتاب .

السادسة : كاتب يكتب المكاتبات إلى ملوك الكفر وشرطه أن يكون لاحقاً بصفة هؤلاء الكتاب .

السابعة : كاتب يكتب ما يلخص بالديوان من الكتب الواردة وما يعرب

---

١ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٧ (الكاتب الاول والثانى) .

من الكتب الأعجمية ، وشرطه جودة الخط وأن يكون لاحقاً في الفضيلة بمن تقدمه من فضلاء كتّاب الديوان(١) .

وأما الطبقة الثالثة ، طبقة كتاب الدّرج ،فقد عرفوا بذلك لغالب كتابتهم في درج الورق الخزايني . والدرج في العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، وهو عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة . وهؤلاء لا يكتبون إلا ما يعينه عليهم كاتب السر — من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والتفاويض والمراسيم والمناشير وغير ذلك ممايجرى مجراه ، ولا يجوز أن يطلق على كتّاب الدرج لقب الموقعين(٢) ، وإنما يجوز أن يطلق عليهم كتاب الإنشاء لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات وغيرها(٣) .

وكما زاد عدد كتّاب الدست زاد عدد كتّاب الدرج ، فقد كانوا سبعة في أيام الظاهر بيبرس(٤) ثم ظل عددهم يتزايد حتّى بلغوا مائة وثلاثين في أيام الناصر فرج . ولذلك يذكر القلقشندي أن هذه الطبقة انحط مقدارها

---

١ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٨ (الكاتب الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع) .
ـ زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٠ (يذكر غرس الدين خليل بن شاهين أن موقعى الدست لهم مراتب ، الا انه لم يوضح هذه المراتب ، وان كان فى معرض الحديث عن أنواع الكتابة بالديوان يذكر انها على انواع متعددة ، وواضح من عرضه لهذه الانواع أنها مرتبطة بمراتب الكتّاب) .

٢ ـ زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٠ (يطلق عليهم لقب موقعى الدرج)

٣ ـ صبح الاعشى ـ الجزء الاول ـ ص ١٣٨ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٨،١١٠ .

٤ ـ السلوك ، طبعة الدكتور زيادة ، الجزء الاول ، ص ٤٨٩ (حوادث سنة ٦٦١هـ) .
ـ كما كانوا فى عهد الدولة الايوبية قليلين جدا (انظر الخطط الجزء الثانى ، ص ٢٢٧) .

وسقطت رئاستها . ونظراً لانحطاط رتبة كتّاب الدست ، كما تقدم ذكره ، وانحطاط رتبة كتّاب الدرج أيضاً ، فقد أصبح كتّاب الدست هم الذين يقومون ، في زمن القلقشندي ، بكتابة المكاتبات الهامة التي كان يقوم بكتابتها كتاب الدرج ، كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان وكتابة العهود والتقاليد والتفاويض والمراسيم والمناشير . وأما كتّاب الدرج فقد صاروا مخصوصين بالمكاتبات في خلاص الحقوق وما في معناها والتواقيع والتقاليد والتفاويض والمراسيم والمناشير الصغيرة ، وأوراق الطريق والمسطرات والمسودات ونحو ذلك . وربما شارك أعلاهم رتبة كتاب الدست في كتابة التقاليد ، والتواقيع والتفاويض والمراسيم والمناشير الكبيرة وما في معناها(١) . وكذلك فإن كتاب الدرج غالباً ما يكونون من أولاد كتّاب الدست(٢) .

وأما فيما يختص بكتابة التذاكر والدفاتر المضمنة لمتعلقات الديوان ، وهي التي يقوم بها الكاتب المنوط به عملية الإثبات والقيد والفهرسة (كاتب الأرشيف) كما سبق أن رأينا في وصف ترتيب أحوال ديوان الإنشاء في الزمن القديم(٣) ، فقد ظل الأمر مستمراً في شأنها حسبما جرى عليه العرف حتى ترك بدر الدين محمد بن فضل الله العمري كتابة السر في عهد الظاهر برقوق(٤) . فمن بعده اقتصر الأمر على كتابة التذاكر والدفاتر لما يرد من المكاتبات ، وما يكتب من الملخصات ، وأما فيما يختص بالأجوبة فقد اكتفى

---

١ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٣٨ـ١٣٩ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٨ .

٢ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٨ .

٣ ـ انظر قبل .

٤ ـ انظر بعد .

بأن يقوم الموقع الذي يقوم بكتابة الجواب بكتابة ما يفيد الرد على هذه المكاتبة(١) .

• • •

• وأما الضرب الثاني من المباشرين بالديوان من غير الكتّاب زمن المماليك فهو : دوادار كاتب السر ، وعدد من المديرين ، وحامل المزرّة .

فأما دوادار كاتب السر فقد حل محل الخازن وحاجب الديوان اللذين كانا يمثلان هذا الضرب من المباشرين بالديوان في الزمن القديم ، ولذلك فإنه جمع بين المهام التي كانت موكولة لكليهما . وكان لا يتولى هذه الوظيفة إلا من يكون في محل الكفاءة ، ولا يوليه إلا السلطان نفسه . وعلى الرغم من أنه ينسب إلى كاتب السر إلا أنه لم يكن يستقر في هذه الوظيفة باستقرار كاتب السر في وظيفته ولا ينفصل بانفصاله عنها(٢) .

وأما المهام الموكولة لدوادار كاتب السر فقد عددها لنا الخالدي على النحو الآتي :

أولا : الملازمة للديوان ولكاتب السر في حال الركوب والنزول والجلوس، فإن احتجب كاتب السر فيكون الدوادار على الملازمة ليتلقى ما يرد للديوان من أمور .

ثانياً : اليقظة وعدم الغفلة ، وإحاطة العلم بكل ما يصدر من الديوان وما يرد عليه من قليل وكثير ، وجليل وحقير بحيث إذا ما سئل عن أي أمر يتعلق بالديوان فيجيب عليه بمعرفة وتمكن وعقل تام .

---

١ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٣٩ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٠٠ .
٢ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٣٩ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٨ .

ثالثاً : تناول الأمثلة(١) وختمها وذلك محصور فيه ، فلا يختم شيء منها إلا بعد وقوف كاتب السر عليها وإذنه له بختمها . والمثال يكبر ويصغر حجماً حسب القاب المكتوب إليه ، أي كلما علت ألقاب المكتوب إليه لزم تعظيم حجم المثال تعظيماً للمرسل إليه ، والعكس بالعكس . وإذا أمره كاتب السر بختم مثال فلا يخرجه من يده إلا مختوماً ، ولا يزاد فيه الحرف الواحد بل ولا النقطة الواحدة إلا بإذن كاتب السر وإطلاعه على ذلك .

رابعاً : تناوله من الناس ما يرد للديوان من المطالعات والقصص وقراءتها ، وما يرد للديوان من الدواوين السلطانية الأخرى من القوائم والسجلات وغيرها ، ولذلك يجب عليه أن يكون يقظاً عارفاً لأصحابها ولوقت ورودها .

خامساً : قيامه على حفظ كل متعلقات الديوان . ولهذا يلزمه إيجاد مكان جيد حرز خال من الرطوبة والأتربة وبعيد عن المطر يخزن فيه كل مكاتبات الديوان والكتب الواردة من عظماء الملوك ، كما يحفظ فيه المزرّة(٢) بعد انفضاض جماعة الديوان . وأخيراً عليه ألا يمكن أحداً من الدخول إليه والاطلاع على ما فيه من أسرار المملكة .

سادساً : اليقظة في كتابة الدفتر بما يصدر من الأمور المهمة بالديوان في كل يوم ، والاحتراز على المسودات ونقلها للدفتر ، ولا يهمل من نقلها السطر الواحد إذا كان به تعلق ، وجمع ما يرد إلى الديوان من المطالعات في اليوم وضم ما يورد منها إلى بعضه وجعلها في إضبارة ويكتب عليها اسم ذلك اليوم من الشهر ، فإذا انقضى الشهر جعل تلك الاضبارات في وقاية وكتب عليها اسم ذلك الشهر من السنة ، فإذا انقضت تلك السنة جعل الاضبارات في ملف واحد وكتب عليها اسم تلك السنة ، ولا تفتح بعد ذلك إلا ليكتب منها .

---

١ ـ الامثلة ، جمع مثال ، انظر قبل .

٢ ـ عن المزرة ، انظر بعد .

سابعاً : استدعاء ما يحتاج إليه الديوان كالأوراق من كل قطع وأوراق البطايق وفوط المزرة وقماشها ، والحبر والرمل وغير ذلك(١) .

ويعاون دوادار كاتب السر في عمله هذا عدد من المساعدين كانوا يسمون بالمديرين (جمع مدير) . وهؤلاء سموا بذلك لأن مهمتهم تنحصر في تناول القصص ونحوها وإدارتها على كاتب السر فمن دونه من الكتاب بالديوان ليكتب كل منهم ما يلزمه من متعلقها . والشرط فيهم الأمانة واليقظة والاحتراز ، وقد كانوا – في زمن الخالدي – دون العشرة ، ويعملون على نوبتين(٢) .

وفي عصر المماليك استجدت وظيفة أخرى بالديوان ، عرف صاحبها بحامل المزرة ، أو خادم المزرة ، أو خازن المزرة ، ومنزلة حامل المزرة بمنزلة نائب دوادار كاتب السر ، ولذلك اشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون عاقلا ، أميناً ذكياً نشطاً .

وفي العصر الفاطمي كانت المزرة تعرف بالخريطة(٣) ، والمزرة والخريطة هي ما يعرف في مصطلحنا الحالي باسم « محفظة الأوراق » . وكانت المزرة تصنع من القماش المحرر الصافي ولها بطانة في صفة الكيس طولها ذراعين وثمن مثنية وعرضها ذراع وثلث ، ولها علاقة من الخيط يجمع به فوهتها .

---

١ – المقصد الرفيع ، ورقة ١١٩–١٢٠ .

٢ – صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٣٩ .
– المقصد الرفيع ، ورقة ١٢٠ .

٣ – الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٣٠٨ (ورد عند ذكر النظر فى المظالم فى الدولة الفاطمية ما نصه – تحمل التواقيع فى خريطة الى ما بين يدى الخليفة للتوقيع عليها) .

وحامل المزرة هو الذي يتقدم بالمزرة إلى السلطان ليوقع على ما بها من أوراق ، ولذلك يلزمه معرفة طريقة ترتيب الأوراق وطريقة عرضها . وطريقة ذلك ، كما أوضحها الخالدي ، هي أن يفرش فوطة من الحرير السكندري أحد طرفيها معقود ويكون ذلك بحضور الدوادار . وأول ما يوضع فيها أكبر ما يكون من قطع الورق ، ثم يوضع فوقه ما دونه من القطع إلى أن يكون قطع الثلث ، ثم يرتب المناشير كما تقدم في قطع الورق وتوضع في الفوطة ، بحيث لا تختلط المكاتبات لكي لا يشتبه على الملك في العلامة (أي التوقيع) . ثم توضع المراسيم المربعة والتذاكر ثم توضع بعد ذلك أوراق الطريق والمراسيم والتواقيع الصغار ، ثم توضع الأمثلة وأولها ما عليه الاسم الشريف ، أي « اسم السلطان » ثم « والده » مع صدرت والعالي ثم « والده » مع أدام وضاعف « ثم أخوه »(١) . ثم تلف وتوضع في المزرة وتحمل إلى القصر فيعرض ترتيبها مرة ثانية ، ثم يتقدم لأخذ العلامة ، فيعلم أولا « أخوه » وهو ما كان في آخر الترتيب ، ثم « والده » إلى أن يكون آخر

---

١ ـ العلامة السلطانية هى توقيع السلطان على كل ما يأمر به ، وتوقيعه على ذلك لا يكون الا بقلم الطومار · وهى كما أوضحها مؤرخو مصر المملوكية لا تخرج عن ثلاثة امور :

أولهـا : التوقيع على تقاليد النواب وتواقيع أرباب المناشير والمراسيم وتواقيع أرباب الرواتب وأوراق الطريق وأنواع معينة من الامثلة بالاسم الشريف واسم أبيه ان كان أبوه ملكا ، مثل محمد بن قلاوون ، وشعبان بن حسين ، وفرج بن برقوق ، وان لم يكن أبوه قد تسلطن فيوقع باسمه الشريف فقط ، والرسم فى ذلك أن يقال رسم بالامر الشريف ، ثم يليه العلامة السلطانية ·

ثانيها : التوقيع بالاسم الشريف مسبوقا بالمملوك أو بوالده ، أو بأخيه ، مثل « المملوك فلان » أو « والده فلان » أو « أخوه فلان » ، وأجلها الصورة الاخيرة · ويوقع بهذا على الامثلة الشريفة التى جرت العادة أن تكون العلامة عليها على هـذا النحو ، وكذلك على الاخوانيات · =

علامته ما وضع أولا في الفوطة من القطع الكامل . ثم تقدم القصص المستوجبة لأخذ « يكتب » فيشملها الخط الشريف وتعاد إلى الفوطة ، ثم ترفع وتعاد إلى الدوادار – فيأخذها ويعيدها لحامل المزرة .

كما ينبه الخالدي بالا توضع في الفوطة لأخذ الخط الشريف ورق ملون ولا دنس ولا مشق ولا خشن كي لا يعثر قلم العلامة فيه ، ولا ورق خفيف كي لا ينفذ منه المداد ، ولا ورق مصقول ولا مثقوب في بيت (أي مكان) العلامة ولا ما يكون ضيقاً على العلامة ، ولا ما يقصر في العرض والطول عن وسع الخط(١) .

وقد وجد من الدوادارية في العصر المملوكي من عرف بدوادار العلامة(٢) وربما يظن أنه حامل المزرة ، غير أن ما جاء في نهاية النص الذي نقلناه عن الخالدي يفهم منه أن حامل المزرة شخص آخر غير الدوادار . ومن الجائز

= ثالثهـا : التوقيع على مناشير الاقطاعات ، وصورة التوقيع التى جرت بها العادة هى ـ الله أملى ، والله ولى ، أو حسبى الله أو الملك لله ، أو المنة لله ، والرسم فى ذلك أن يقال خرج الامر الشريف ثم يليه العلامة السلطانية · هذا وقد كان السلطان فى الزمن الاول من عصر المماليك يعلم بالطغرا السلطانية على مكاتبات الملوك خاصة ، وقد بطل ذلك فى زمن المقريزى ·

ـ انظر فى هذا الصدد :

ـ التثقيف ، ورقة ٨١ ب ·

ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢١١ ·

ـ زبدة كشف الممالك ، ص ١٠١ـ١٠٢ ·

— STERN : Op. Cit, p. 157 159

١ ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١١٩ـ١٢٠ ·

٢ ـ حسن الباشا ـ المرجع السابق ، الجزء الثـــانى ، ص ٥٢٦ (جاء ذكر هذه الوظيفة فى حوادث سنة ٦٧٩هـ ، فى عهـــد السلطان قلاوون) ·

أن يكون هذا الدوادار الذي تعاد إليه المزرة فيعيدها بدوره إلى حاملها وهو دوادار كاتب السر الذي سبق أن تحدثنا عنه ، ومن الجائز أن يكون أحد الدوادارية الذي خصص لأخذ العلامة السلطانية فعرف بها .

ومن هذا العرض لاختصاصات كاتب السر واختصاصات كل من يعمل تحت أمره بديوان الإنشاء يتضح لنا نظام العمل في هذا الديوان . كما يتضح لنا بصفة عامة المراحل المختلفة التي تمر بها المكاتبات التي ترد إلى الديوان أو التي تصدر عنه نظراً وتصريفاً وتلخيصاً ، وإنشاء ، وكتابة ، وترجمة إذا ما اقتضى الأمر ذلك ، وتبييضاً ، ونسخاً ، وقيداً ، وفهرسة ، ثم تخليداً أي حفظاً . ولكي تكون الصورة التي نخرج بها عن نظام العمل في ديوان الإنشاء دقيقة فإنه يلزم لنا إيضاح بعض المراحل التي لم توضحها النصوص السابقة بما فيه الكفاية ، وهذه المراحل هي مرحلة التنزيل أو الثبت ، والنسخ والتخليد .

فيما يختص بالتنزيل أو الثبت فقد أوضح كترمير Quatremere وشتيرن Stern هذه المرحلة التي تمر بها المكاتبة ، واستشهدا في ذلك بنصوص عديدة مستخرجة من المصادر الخاصة بالعصر الفاطمي والأيوبي والمملوكي . فبعد أن تعرض المكاتبة على الخليفة أو على السلطان ويفضها ثم يسلمها إلى صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب السر لقراءتها ، يأمر بتنزيلها في دفتر الديوان وبما يراه فيها . فإذا كانت المكاتبة تختص بأمر من متعلقات ديوان الإنشاء تولى صاحب الديوان الرد عليها . وأما إذا كانت تتعلق بشيء يختص بالدواوين السلطانية الأخرى أو بإحداها لخصت مقاصد المكاتبة ونسخت منها عدة نسخ ، أو نسخت المكاتبة كاملة ، وأرسلت نسخ الملخصات ، أو النسخ الكاملة إلى هذه الدواوين أو لاحداها لإثباتها بها . وفي كل ديوان

كان على الكاتب الذي يقوم بإثباتها أن يعلم على المكاتبة ، وكذلك في دفتر الديوان الخاص به بما يفيد إثباته لها(١) .

وأما النّسخ ، فقد أوضح لنا ابن الصيرفي مدى الدقة التي يجب أن تتم بها كتابة النسخ ، إذ يقول في الفصل الذي كتبه عمن ينبغي أن يؤهل لذلك (ويقوم . . . . . على نسخ جميع ما يكتب في هذا الديوان ويصدر عنه في نسخ مخلّدة فيه ولا تغادر المبيضة لتكون موجودة متى احتيج إليها(٢) . فإذا تطلب الأمر استخراج نسخة رسمية Official transcript لأية مكاتبة أو لأية وثيقة أمكن بعد صدور الأمر بذلك وعن طريق الاستعانة بالتذاكر المضمنة لملخصات الكتب ، والدفاتر المضمنة لمتعلقات الديوان(٣) أمكن استخراج هذه النسخة التي يثبت في ذيلها أنها نسخت بديوان الإنشاء(٤) .

---

١ ـ انظـر :

— QUATREMERE : Histoire des sultans mamlouks, I, p.205, note 86
— stern : Op. Cit, No. I, 2, 3, 5, 6, 7, 8, p. 168-169

(فى نهاية كل مرسوم من هذه المراسيم ينص على نسخه وتثبيته فى الديوان أو فى الدواوين التى يقتضى الامر اثباتها فيه ـ انظر تفسير ذلك فى الصفحات التى سبقت من هذا الكتاب) .

ـ الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ١١ـ١٢ .

ـ انظر قبل ، طريقة تلقى الاجوبة من الدواوين السلطانية الاخرى وطريقة عرضها على السلطان) .

٢ ـ قانون ديوان الرسائل ، ص ١٢٣ .

٣ ـ انظـر قبـل .

٤ ـ عن مرسوم الخليفة الظاهر

والتعليق عليه انظر : — stern : Op. Cit, p. 24-27, 28 note 7

هذا المرسـوم الصـادر من الخليفة الظاهر لطائفتى اليهود الربانيين والقرائين فى سنة ٤١٥هـ والذى نشره شترن ليس هو المرسوم الاصلى ، وانما هو صورة رسمية مستخرجة عن الاصل المحفوظ فى ديوان الانشاء .

وقد ذيلت هذه الصورة بما يفيد ذلك ، اذ وردت نهايتها هـذه العبارة (نسخ فى ديوان الانشاء ، والحمد لله ولى كل نعمة) .

وأما المرحلة الأخيرة التي تمر بها المكاتبة أو الوثيقة فهي مرحلة الحفظ . ويجدر بنا أن ننوه بأن المصطلح الإسلامي المستخدم في هذا الصدد ، وهو « التخليد » أقوى من حيث الدلالة من مصطلح « الحفظ » المستخدم في زماننا . وتأكيداً لهذا المعنى فإن خزانة ديوان الرسائل كانت تسمى « بخزانة الحجج »(١) ، وقد سبق أن رأينا كيف كانت كل مكاتبة تخلد في ديوان الإنشاء(٢) . وأما إذا كانت المكاتبة أو الوثيقة تتعلق بديوان آخر ، فإنها كانت تخلد فيه وتثبت نسخة منها في ديوان الإنشاء أو في الدواوين السلطانية الأخرى إذا كان الأمر يقتضي ذلك (٣) . هذا ويتضح لنا مما سبق أن أوردناه عن مهمة الخازن ومهمة حاجب الديوان في الزمن القديم ، وهي التي آلت إلى دوادار كاتب السر في العصر المملوكي ، مدى الاهتمام بحفظ مكاتبات ووثائق الديوان حفاظاً على أسرار الدولة .

وعلى هذا النحو يتضح لنا أن المسلمين لم يكونوا أقل من الأوربيين حفاظا على وثائقهم ومكاتباتهم الرسمية . وإذا كان الجانب الأكبر من هذه الوثائق والمكاتبات الرسمية التي كانت محفوظة في دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية قد فقد ، فإن ذلك يرجع إلى ما تعرضت له البلاد الإسلامية من

---

١ ـ البيهقى ـ تاريخ البيهقى ، ص ٨٠٠ .

٢ ـ انظر قبل .
ـ التثقيف ، ورقة ٨٢ أ ـ ٨٤ أ (افاض فى الحديث عن التخليد بمناسبة الايمان التى يقوم أرباب الوظائف الكبيرة بحلفها للسلطان عند تقلدهم هذه الوظائف . وكان لكل وظيفة من الوظائف الكبيرة يمين خاص ، وكانت الرقاع التى يوجد فيها نص الايمان تخلد فى ديوان الانشاء بعد ذلك) .

٣ ـ الشيال ـ المرجع السابق ـ ص ٣٢٥ (ورد فى ختام منشور للخليفة الامر بأحكام الله هذه العبارة ـ وليخلد هذا المنشور فى ديوان التحقيق والمجلس بعد ثبوته فى جميع الدواوين) .

حروب وما تعرضت له دواوين الإنشاء من حرائق أو من نهب بسبب تقلب الدول على مر العصور .

وكما سبق أن عرفنا فإن ديوان الإنشاء في مصر زمن الأيوبين والمماليك كان مقره القلعة . وقد تعرضت القلعة للحريق عدة مرات في مصر المماليك ، وامتدت نيران هذه الحرائق إلى ديوان الإنشاء كما امتدت إلى أماكن كثيرة غيرها بالقلعة .

ففي سنة ٦٨٤ و ٦٩١ و٧١٥ و٧٧٤هـ شبت النار بالقلعة وكانت أخطر هذه الحرائق تلك التي حدثت في سنة ٦٩١ واحترقت فيها خزانة الكتب ، وتلك التي حدثت في سنة ٧٧٤ بسبب صاعقة وقعت على القلعة واستمرت أياماً وأحرقت أشياء كثيرة بها(١) .

وفي سنة ٧٩١هـ اختلت أمور كثيرة بالقلعة أثناء الفتنة التي أطاحت بالظاهر برقوق من عرش السلطنة ، وكان ديوان الإنشاء من بين ما اختل بها إذ نهب ما به من وثائق ومكاتبات(٢) .

---

١ ـ كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، الترجمة العربية ، ص ١٠٨ ، ١٣٨ ، ١٥٥ .

٢ ـ الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٥ـ٢٢٦ .

(البـــاب الخامس)

الشروط الواجب توفرها فيمن يتولى كتابة السر

- الشروط الواجب توفرها فيمن يتولى السـر ٠
- مدى توخى شرط الكفاءة الادبيـة فى عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤ـ٩٢٣هـ) ٠

(الشروط الواجب توفرها فيمن يتولى كتابة السّر)

أفاض الكتّاب في ذكر الشروط والصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى رئاسة ديوان الإنشاء وكتابة السر(١) . وقد جاء شرط الكفاءة الأدبية في مقدمة ما ذكروه من شروط . فحيث أن كاتب السر هو المسئول عن كل ما يصدر من ديوان الإنشاء من مكاتبات على اختلاف أنواعها ، وجب أن يملك زمام البلاغة والبراعة الأدبية نثراً ونظماً ، بل وأن يرقى على أهل هذه الصناعة . وبالإضافة إلى ذلك وجب أن يكون على معرفة تامة بالعلوم الدينية ، وأن يكون ملماً بتاريخ العرب وتاريخ البلاد المجاورة وسير الملوك الأوائل وما تعرضوا له من أحداث وتجارب . ويا حبذا لو أضاف إلى هذه الألوان من المعرفة معرفة لغة الكتب التي ترد عليه لملكه ، ليتمكن من قراءتها والإجابة عنها من غير اطلاع ترجمان عليها ، ففي ذلك صون لأسرار المملكة(٢) .

ويتساوى في ذلك من حيث الأهمية شرط صون السر وكتمه فحيث أن كاتب السر هو مستودع أسرار الدولة والمطلع على أحوالها وخفايا أمورها ، تعين عليه أن يكون من كتمان السر بالمنزلة التي لا يدانيه فيها أحد . فكتم السر هي الصفة التي بها شهر ، وبالإضافة إليها عرف(٣) .

ولذلك فإن يمين الولاء للسلطان الذي يؤديه كاتب السر عند توليه مهام

---

١ ـ صبح الاعشى ، الجـزء الاول ، ١٠٤ـ١١٠ (فصـل فى صفة صاحب ديوان الانشاء وآدابه) .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٢ـ١٣ .
٢ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، ص ١٦٥ .
٣ ـ صبح الاعشى، نفس الجزء ، ١٠٦ـ١٠٧ .

وظيفته — بوصفه أحد أصحاب الوظائف العليا في الدولة — جاء في مقدمته هذه العبارة ، (وأنني مهما اطلعت عليه من مصالح مولانا السلطان « فلان » ونصائحه ، وأمر داني ملكه ونازحه ، أوصله إليه وأعرضه عليه ولا أخفيه شيئاً منه ولو كان على ، ولا أكتمه ولو خفت وصول ضرره إلى(١) .

ويرتبط بهذا الشرط شرط آخر نقله غرس الدين خليل بن شاهين عمن له خبرة بديوان الإنشاء وأحواله في العصر المملكوكي ، وهذا الشرط هو عدم معرفة كاتب السر للغة التركية . غير أنه يرد على القائل بذلك بأن هذا الشرط يتنافى مع ما اشترط في كاتب السر عامة من كتمه للسر وصونه له ، لأنه إذا لم يكتم السر إذا اطلع عليه باللغة التركية فكيف يكتمه إذا اطلع عليه باللغة العربية ، وهو الأمر الغالب(٢) .

غير أننا نجد في ترجمة أحد كتّاب السر ما يفهم منه عكس ذلك . ففي ترجمة علاء الدين بن الأثير ، الذي تولى كتابة السر في عهد الناصر محمد بن قلاوون يخبرنا ابن حجر العسقلاني أنه كان يركب في ركبه ستة عشر مملوكاً من الأتراك ، وكان هؤلاء يقفون بين يديه في ديوان الإنشاء ليترجمون عنه للناس حديثه معهم باللغة التركية . وكان علاء الدين لا يتكلم معهم إلا باللغة التركية(٣) .

وربما كان لهذا الشرط جانب من الصحة ، فالمماليك كانوا يكونون الطبقة العليا في المجتمع المصري ، وهم بحكم وضعهم سادة أجانب عن البلاد كانو حريصين على وجود هذا الفارق الطبقي بينهم وبين بقية أفراد

---

١ ـ التثقيف ، ورقة ٨٥ ب (بعد أن يقوم بحلف اليمين تكتب ورقة بذلك وتخلد بديوان الانشاء) .
٢ ـ زبدة كشف الممالك ، ص ٩٩ـ١٠٠ .
٣ ـ الدرر الكامنة ، طبعة جاد الحق ، الجزء الثانى ، رقم ٢٦٥٦ ، ص ٨٢ـ٨٤ .

الشعب ، وعلى المحافظة على وضعهم . وهذا يقتضي أن يكون حديثهم فيما بينهم باللغة التركية لغتهم الأصلية .

ومن أبرز الأمثلة التي تتصل بموضوع البحث التي توضح سلوكهم الطبقي هذا ، ما يذكره التاريخ عن السلطان برسباي . فمن المعروف أن برسباى لم تتوفر له ظروف تعلم اللغة العربية كما ينبغي ، ولذلك فقد اختص ببدر الدين العيني الذي يكاد يجالسه كل ليلة ليشرح له باللغة التركية ما كتبه في تاريخه « عقد الجمان في تاريخ أهل زمان » ، وليشرح له أيضاً غوامض الفقه . وعندما كان بدر الدين العيني يتغيب عنه لأمر قاهر كان ينوب عنه في ذلك محب الدين بن مولانا زاده ، وهو أحد الفقهاء ممن ينتمون إلى أصل تركي .

وعلى الرغم من عدم إلمام برسباي إلماماً كافياً باللغة العربية ، فقد كان كان حريصاً على ألا يعرف أحد ذلك محافظة منه على ناموس الملك وحرمة السلطنة وليس أدل على ذلك من هذه الحادثة الفردية التي وقعت لأحد القضاة في مجلسه . ففي أثناء نظر إحدى القضايا لاحظ هذا القاضي جهل السلطان باللغة العربية وعدم تمكنه من الإلمام بمجريات الحديث وتفهمه ، فقام يشرح له باللغة التركية بعض ما غمض عليه . غير أن السلطان لم يقبل منه ذلك واحتد عليه في القول ، كما أمر بضربه بالسوط في مجلسه(١) .

ومن هذه الشروط التي يجب أن تتوفر في كاتب السر أن يكون أميناً غاية الأمانة في أدائه لمهام عمله . فيلزم فيه أن يكون أميناً في قراءة الكتب

---

١ ـ انظر :

— DARRAG : L'Egypte nous le regre de Barsbay, p. 11-12, 30

ـ كان المماليك بمجرد جلبهم من أسواق الرقيق يقوم من اشتراهم ، أميرا كان أو سلطانا ، بتعليمهم اللغة العربية ومبادىء الشريعة الاسلامية .

الواردة إليه وإذا ما تأخر في قراءتها على السلطان لسبب ما عليه أن يعاوده في ذلك في وقت آخر ، فإن لم يعاوده فيه بمجموع لفظه المطول عاوده فيه بمعناه في الملخصات(١) . وأما فيما يختص بالكتب الصادرة فعليه ألا يجيب في شيء لم ينص فيه مرسوم السلطان بنص خاص ، وأما ما لم تجر العادة بألا ينص فيه السلطان بنص خاص فلا يجيب فيه إلا بأكمل ما يرى أن فيه مصلحة السلطان ومصلحة دولته وبأحسن جواب يقدر عليه ويصل اجتهاده إليه . كما يجب عليه أن يراجع السلطان في كل ما يمكنه مراجعته فيه وأن يعمل بنص ما يرسم له به فيه(٢) .

هذا فضلا عما يجب أن يتحلى به من الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يقوم على خدمة الملوك والسلاطين ، ومن أهمها صدق النصيحة والمشورة ، وأدب الحديث في مجالسهم والصبر على المكاره(٣) .

ونظراً لما سبق أن رأيناه من تزايد رتبة كاتب السر وتزايد اختصاصاته بحيث أصبح عظيم الدولة ومدير أمورها ، فقد أصبح الأمر يتطلب فيمن يقع عليه الاختيار لهذه الوظيفة المهمة أن يكون على قدر كبير من المهارة السياسية والمقدرة الإدارية(٤) .

مدى توخي شرط الكفاءة الادبية في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤ ـ ٩٢٣هـ)

ولنحاول بعد أن ألممنا بهذه الشروط الرئيسية التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى هذه الوظيفة المهمة أن نعرف مدى توخي هذه الشروط – وعلى وجه التخصيص – شرط الكفاءة الأدبية فيمن تولاها من كتّاب السرّ . إلا أنه

---

١ ـ عن الملخصات ، انظر قبل .

٢ ـ التثقيف ، ورقة ٨٦ ا .

٣ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ٦١ـ٨٩ .
ـ المقصد الرفيع ، ورقة ١٢،١٣ .

٤ ـ انظر قبل .

يتعين علينا قبل أن نقوم بهذا التقييم لكتّاب السر أن نقوم بتقييم آخر لمفهوم معيار الكفاءة الأدبية على طول امتداد العصر المملوكي .

فليس ثمة شك أن معيار الكفاءة الأدبية الذي كان يتطلب فيمن يشغل هذه الوظيفة لم يظل ثابتاً طوال عصر المماليك ، فلا بد وأن يكون قد تأثر بالتطور العام الذي مر به الأدب العربي في هذه الفترة خاصة . فالمتصفح لكتب الأدب عامة ، وكتب التاريخ خاصة يرى كيف هبطت أساليب الكتابة ، بل كيف غلبت العامية على العربية الفصحى على ألسنة الكتاب .

وهذا التطور في معيار الكفاءة الأدبية يمكن أن يلمس بكل وضوح في تراجم كتاب السر في العصر المملوكي ، فقد كان كاتب السر مرآة لهذا التطور . فمن الملاحظ أنه في عصر المماليك البحرية ، أي من منتصف القرن السابع الهجري حتى أوائل التسعينات في القرن الثامن الهجري ، توفر شرط الكفاءة الأدبية في كل من تولى كتابة السر . فقد كان جميعهم دون استثناء من كبار الكتّاب ومن أعلام الأدباء . ولذلك فإن كتّاب السر في هذه الفترة هم الذين كانوا يتولون بأنفسهم إنشاء المكاتبات والرسائل ، وقلما كانوا يعتمدون على الكاتب المنشيء الذي كانت مهمته إنشاء هذه المكاتبات والرسائل . **ومن المعروف أن هـذه الفترة تمثـل الفترة الاخيرة فى تاريخ ازدهار الادب العربي .**

وأما في عصر المماليك الجراكسة ، وهو الذي شهدت بدايته — على وجه التقريب — بداية ضمور الأدب العربي وأساليب الكتابة نظماً ونثراً ، وغلبة العامية على العربية الفصحى ، فإننا نجد أن معظم من تولى كتابة السر لم يتوفر فيهم شرط الكفاءة الأدبية . وليس هذا فحسب بل إنهم وصفوا على ألسنة

الكتاب المعاصرين بالجهل . ولذلك قل من تولى منهم إنشاء المكاتبات والرسائل وأصبح جل الاعتماد في ذلك على طبقة الكتّاب المنشئين(١) .

كما أن معيار الكفاءة الأدبية تأثر أيضاً بتطور كتابة الإنشاء ، وخاصة في عصر المماليك البحرية . فهذه الفترة شهدت وضع المصطلحات الخاصة بجميع أنواع المكاتبات التي تصدر عن ديوان الإنشاء ، ووضع النظم التي استقر العمل بها في هذا الديوان في الدولة المملوكية بما يتمشى مع طبيعة النظام المملوكي والطابع الجديد الذي تميز به في تاريخ أنظمة الحكم في مصر الإسلامية خاصة ، وفي الدول الإسلامية عامة . وما قام به رؤساء الديوان ، أو كبار الكتّاب في هذه الفترة لا يعدوا في واقع الأمر أن يكون تطويراً للمصطلحات والنظم التي جرى العمل بها في عهد الدولتين الفاطمية(٢) والأيوبية مما يتفق مع طبيعة نظام الحكم المملوكي وبما يتفق مع المركز الجديد الذي اكتسبته الدولة المملوكية في العالم الإسلامي نتيجة للانتصارات العسكرية والسياسية التي حققتها في الفترة الأولى من وجودها في مختلف الميادين(٣) . فقد ترتب على ذلك أن تبوأت الدولة المملوكية زعامة العالم الإسلامي ، واتسع مجال نفوذها وتدبيرها ، كما اتسعت علاقاتها الدولية فشملت معظم الأقطار

---

١ ـ عن تراجم كتّاب السر فى عصر المماليك ، انظر :
WIET : Op. Cit,

٢ ـ من أهم ما كتب فى صناعة الانشاء فى العصر الفاطمى كتاب « مواد البيان » لعلى بن خلف ، وكتاب « قانون ديوان الرسائل » لابن منجب الصيرفى ـ انظر الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٩ـ١٠ .

٣ ـ أهم هذه الانتصارات العسكرية والسياسية التى تمت على أيدى المماليك فى هذه الفترة هى هزيمة المغول وطرد الصليبيين من الشام وقيام الخلافة العباسية فى مصر .

والممالك المعروفة وقتذاك في الشرق وفي الغرب(١) .

فكتابة الإنشاء في ذلك العصر الأول من الدولة المملوكية قد أصبحت صناعة لها أصولها ومصطلحاتها ونظمها . فكتابة المكاتبات والرسائل على اختلاف أنواعها أصبحت تجري وفق قواعد وقوالب معينة ، كل نوع منها قد استقر المصطلح الخاص بها سواء من حيث الافتتاح أو ذكر ألقاب المكتوب إليه ، أو نوع الدعاء له في صدر الرسالة وفي ختامها ، وكذلك نوع العلامة السلطانية(٢) . ولذلك فإن معيار الكفاءة الأدبية في عصر المماليك الجراكسة فقد الكثير من وزنه بعد أن استقرت هذه الأصول والمصطلحات والنظم الخاصة بأنواع المكاتبات التي تصدر عن ديوان الإنشاء في العصر السابق عليه . فأصبح مدلول الكفاءة عند المعاصرين هو مدى إلمام كاتب السر بهذه الأصول والمصطلحات والنظم ، ومدى قدرته على قراءة القصص والرسائل في مجلس السلطان دون أن يتلعثم أو يلحن في قراءتها .

ففي أوائل العصر المملوكي قام محي الدين بن عبد الظاهر ، وكان على رأس موقعي الدست في هذه الفترة ، بوضع الكثير من مصطلحات الإنشاء ونظم الديوان(٣) . ومن بعده قام شهاب الدين أبي الثناء محمود بن سليمان الحلبي المعروف بابن فهد ، والمتوفى سنة ٧٢٥ هـ ، بتأليف كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » . وفي هذا الكتاب تناول بالشرح قواعد كتابة

---

١ ـ عن النظـــام المملوكى وعن زعامة الدولة المملوكية للعـــالم الاسلامى انظـر :

— G. DEMOMPYNES : Op. Cit, Introduction.

— DARRAG : Op. Cit, Introduction.

٢ ـ انظر زبدة كشف الممالك ، ١٠٠ـ١٠١ .

٣ ـ محيى الدين بن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور فى سيرة الملك المؤيد المنصور ، نشر الادارة العامة للثقافة لوزارة الثقافة والارشاد القومى ، ص ٩ وما يليها .

الإنشاء ليأتي ـ حسبما قال ـ كتّاب الإنشاء هذه الصناعة من أبوابها وليعلموا من طرقها ما هو الأخص بأوضاعها والأولى بها(١) .

كما أسهم بجانب كبير من ذلك العمل من تولى من أسرة بن فضل الله العمري كتابة السر بمصر أو بالشام في عهد الناصر محمد بن قلاوون . وتجلى ذلك الإسهام من جانب هذه الأسرة فيما كتبه شهاب الدين أحمد بن محيي الدين بن فضل الله ـ الذي كان يشارك أباه في القيام بمهام كتابة السر(٢) من كتب أصبح المعول عليها في صناعة الإنشاء في العصر المملوكي . فشهاب الدين أحمد هو الذي كتب الموسوعة العلمية « مسالك الابصار في ممالك الأمصار » لتكون في خدمة كتّاب الإنشاء(٣) ، وهو الذي كتب « التعريف بالمصطلح الشريف » ليكون دليلا موجزاً لكتّاب ديوان الإنشاء يسترشدون به في كل ما يقومون به من عمل في الديوان(٤) .وهذا الكتاب الثاني أصبح بمثابة دستور لكل من يشتغل بصناعة الإنشاء(٥) .

---

١ ـ ابن فهد الحلبى ـ حسن التوسل الى صناعة الترسل ، طبعة القاهرة سنة ١٣٩٨هـ ، ص ٩ (مقدمة المؤلف) .
ـ أشار القلقشندى الى هذا الكتاب باعتباره أحد الكتب التى ألفت فى صناعة الانشاء ـ انظر ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ٣٥ .
ـ هذا وقد عمل ابن فهد الحلبى فى ديوان الانشاء كما اشتغل بهذه الصناعة عدد من أبنائه ، بل ان أحدهم وهو شرف الدين تولى كتابة السر بالديار المصرية فىعهد الناصر محمد بنقلاوون

٢ ـ انظـر : — WIET : Op. Cit.

٣ ـ — G. DEMOMPYNES : Op. Cit, p. IV.

٤ ـ التعريف ، المقدمة ، ص ٨ .

٥ ـ هذا هو كل ما أمكن معرفته عن اسمه ـ انظر :
— G. DEMOMPYNES : Op. Cit, p. XII-XIII.

وفي الثمانينات من القرن الثامن الهجري وضع القاضي تقي الدين عبد الرحمن ابن المقر العالي القاضي المحيبي ناظر الجيوش المنصورة (١) كتابه « تثقيف التعريف » الذي أصبح يعرف « بالتثقيف » مقتفياً أثر شهاب الدين أحمد في وضع كتابه « التعريف » . وقد اهتم صاحب التثقيف بإيراد ما أهمله صاحب التعريف وذكر ما فاته من مصطلح ما كازن يكتب أو ما حدث بعد تأليف كتابه .

ولذلك أصبح التثقيف بمثابة دستور ثان لكتّاب الإنشاء . غير أن كتاب التعريف ظل هو المعول عليه لدى كتّاب الإنشاء . . لأن التثقيف أغفل بعض المقاصد التي أوردها صاحب التعريف والتي لا غنى للكاتب عنها (٢) .

ومن الكتب التي وضعت في الفترة الأخيرة من عصر المماليك البحرية ، لتكون في خدمة كتاب الإنشاء كتاب « إجابة السائل إلى معرفة الرسائل » . وهذا الكتاب من نوع آخر غير الكتب السابقة ، فقد اهتم مصنفه بأن ضمنه عدداً كبيراً من نماذج مختلفة مما يصدر من ديوان الإنشاء من مكاتبات ، كالعهود والتقاليد والتواقيع والتفاويض والمراسيم والمناشير والايمان والأمانات والرسائل السياسية ، وذلك ليسترشد بها كتّاب الإنشاء فيما يقومون بكتابته وإنشائه(٣) .

---

١ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء ، المقدمة ، ص ٨ (لم يذكر القلقشندى اسمه وانما ذكر لقبه فقط ، وهو : المقر التقوى ابن ناظر الجيش) ٠

٢ ـ صبح الاعشى ، نفس الجزء والصفحة ، عن التعريف انظر بعد٠

٣ ـ يوجد نسخة لهذا الكتاب محفوظة بالمكتبة الاهلية بباريس القسم العربى، تحت رقم ٤٤٣٧ ٠ واسم مصنف هذه المخطوطة لا زال مجهولا لى ، وكل ما أمكننى معرفته من قراءة هذه النسخة الخطية أن مصنفها كان أحد كتاب الدست بديوان الانشاء وانه كان يشغل هذه الوظيفة فى سنة ٧٧٦هـ ـ ١٣٧٥م ٠

وفي عصر المماليك الجراكسة وضعت كتب أخرى في صناعة الإنشاء تجمع بين معظم أنواع الكتب المماثلة التي وضعت في العصر الأول . فمنها ما وضع على غرار موسوعة « مسالك الابصار في ممالك الأمصار » مثل موسوعة « صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي»(١) . ومنها ما وضع على غرار كتابي « التعريف » و « التثقيف » . مثل كتاب « المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا » للخالدي(٢) . ومنها ما وضع على غرار كتاب « إجابة السائل لمعرفة الرسائل » مثل كتاب « قهوة الإنشاء » لتقي الدين ابن حِجّه(٣) . ومثل الكتاب الذي صنفه أحد كتاب ديوان الإنشاء في الفترة الأخيرة من القرن التاسع الهجري ، والذي جمع لنا فيه عدداً كبيراً من نماذج المكاتبات وخاصة الرسائل السياسية المتبادلة بين عدد كبير من سلاطين المماليك في ذلك القرن ومعظم سلاطين وأمراء العالم الإسلامي المعاصرين لهم(٤) .

---

١ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ١٠ .

٢ ـ عن هذا الكتاب وعن صاحبه انظر ما سبق أن ذكرناه ، من قبل ،

٣ ـ توجد نسخة خطية لهذا الكتاب بالمكتبة الاهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٤٤٣٨ . (يجمع هذا الكتاب الرسائل التى أنشأها بقلمه تقى الدين ابن حجة ، ومعظمها كان فى سلطنة المؤيد شيخ) .
ـ كما ألف ابن حجة تصانيف عديدة ، منها المنظوم والمنثور . ومن هذه التصانيف ما وصل الينا وقدر له أن ينشر ، ومنها ما لا يزال مخطوطا أو فقد ـ عن ترجمة حياته انظر الضوء اللامع ، الجزء رقم ١١ ، رقم ١٤٤ .

٤ ـ المخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، القسم العربى رقم ٤٤٤٠ (عن هذه المخطوطة انظر مقالنا : رسالتان متبادلتان بين سلطان مالوه والاشرف قايتباى ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الرابع ، الجزء الاول ، شوال ١٣٧٧هـ ، ص ١٧ـ٩٨ .

غير أن جميع هذه الكتب التي وضعت في عصر المماليك الجراكسة لم يكن لها قيمة عملية تذكر بالنسبة لكتّاب الإنشاء . هذا ومن ناحية أخرى فقد فشلت بعض المحاولات التي بذلت في أواخر القرن الثامن الهجري لتغيير أو لتعديل بعض ما استقر عليه مصطلح الإنشاء في كتاب التعريف . ولهذا ظل كتاب التعريف حتى نهاية العصر المملوكي هو الدستور الذي لا يحيد عنه كتّاب الإنشاء قيد أنملة(١) .

فقد حاول كاتب السر علاء الدين على الكركي (من ١٤ صفر ٧٩٢ حتى شوال ٧٩٣ هـ) أن يخرج على ما ورد في كتاب التعريف فيما يختص بافتتاح المكاتبات التي تتعلق بأول ولاية ذات شأن . فبدأ مثل هذه المكاتبات بالبسملة عملا بالحديث الشريف(٢) . كما حاول تعديل بعض الصيغ الخاصة بمراسيم التولية ، غير أن هذا التجديد صرف النظر عنه بمجرد أن ترك الكركي كتابة السر(٣) .

وكان كاتب السر بدر الدين محمود الكلستاني (من ٢ شوال ٧٩٦ حتى ١٠ جمادي الأول ٨٠١ هـ) الذي عرف بكفاءته اللغوية ، لا في العربية فحسب ، وإنما في الفارسية والتركية أيضاً ، كثير الوقيعة فيمن سبقه من كتّاب السر لاقتصارهم على ما رسمه لهم شهاب الدين أحمد بن فضل الله في كتابه التعريف ، ولغضبهم على من لا يعرف ذلك المصطلح . ولذلك حاول مراراً أن يغير المصطلح على طريقة أهل البلاغة وأن يعتني بمراعاة المناسبة ، غير

---

١ ـ انظر بعد ،

٢ ـ صبح الاعشى ، الجزء الاول ، ص ٦٢ ، الجزء السادس ، ص ٢٢٠ .

٣ ـ صبح الاعشى ، الجزء الحادى عشر ، ص ١٧٤ـ١٧٥ .

أن محاولاته هذه ذهبت سدى أمام تصدي كبير الموقعين بديوان الإنشاء وقتذاك ، القاضي ناصر الدين بن الفاقوسي وتشنيعه عليه(١) .

ولذلك فإن المقريزي يحدثنا أنه منذ عهد خلفه فتح الدين فتح الله (من جمادى الأولى ٨٠١ هـ حتى ربيع الأول ٨٠٨ للمرة الأولى ، ثم من ٧ ذي الحجة ٨٠٨ حتى شوال ٨١٥ هـ للمرة الثانية (أصبحت المهمات السلطانية يكتبها الموقعون بالديوان حسب النماذج المقررة بعد أن يصدر كاتب السر الإذن بذلك(٢) .

وتتوافر القرائن في الفترة التالية على أن العمل بديوان الإنشاء ظل يسير وفق ما ورد من مصطلح بكتاب التعريف حتى نهاية الدولة المملوكية . ففي منتصف القرن التاسع الهجري ، على وجه التقريب ، نجد غرس الدين خليل ابن شاهين صاحب كتاب « زبدة كشف الممالك » يقول ، في هذا الصدد (فأما ما صـــدر من ديوان الإنشـــاء فلا يمكن تغيير ه ولا تبديله ، فإنه على الأوضاع المحكمة والقانون المستقيم وتبيين رتب الناس ومنازلهم . وأما ما كان من الأخوانيات فلا بأس بالحشمة فيه بحيث أن يقارب المعنى ولا يبالغ في الخروج عن الحدود فيكون على نوع الاستهزاء) أي أنه لم يكن قد بقي للكتّاب إلا الأخوانيات يتصرفون في كتابتها حسبما يقتضيه الظرف والمناسبة . غير أنه قبل ذلك ببضعة أسطر يوضح لنا كيف أن كتابة الأخوانيات أصبحت بدورها تخضع لمصطلحات وقواعد خاصة بها(٣) .

وفي نهاية العصر المملوكي يقول المؤرخ أبي إياس عن شهاب الدين أحمد

---

١ ـ ابن حجر : أنباء الغمر ، تحقيق حسن حبشى ، ج١ ، ص٤٧ ، ج٢ ، ص٤٧ ـ ٤٨ .
٢ ـ المقريزى : السلوك تحقيق عاشور ، ج٤ ، ق١ ، ص١٩ ، ٢٤٨ .
٣ ـ زبدة كشف الممالك ، ص ١٠١ .

ابن فضل الله أن كتابه الذي صنفه في صناعة التوقيع (التعريف) هو الذي صار العمل عليه في زمانه بين الموقعين(١) .

وعلى هذا النحو يمكن القول بأنه منذ أوائل القرن التاسع الهجري ـــ على وجه التقريب ـــ ، أصبح الإلمام بمصطلحات الإنشاء هو معيار الكفاءة الأدبية الذي يتطلب فيمن يشغل وظيفة كاتب السر .

ـ (انتهي) ـ

---

١ ـ بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الاول ، ص ٢٠١ ٠

الفهـــــرس

صفحة

صفحة

المصادر والمراجع

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت .

ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة بولاق وطبعة استانبول .

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب وطبعة كاليفورنيا .

ابن تغري بردي : منتخبات من حوادث الدهور ، طبعة كاليفورنيا .

ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، طبعة القاهرة .

= = = : أنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشي ، طبعة القاهرة .

ابن حجّه : قهوة الإنشاء ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس .

ابن خلدون : المقدمة ، طبعة المطبعة التجارية بالقاهرة .

ابن رسته : الاعلاق النفسية ، طبعة ليدن .

ابن سعد : الطبقات الكبرى ، طبعة بيروت .

ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، طبعة بولاق .

ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، طبعة مصر .

ابن الجوزي : سيرة عمر بن الخطاب .

ابن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، طبعة القاهرة .

ابن فهد الحلبي : حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، طبعة القاهرة .

ابن هشام : سيرة النبي ، طبعة ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م .

ابن منجب الصيرفي : قانون ديوان الرسائل ، تحقيق علي بهجت ، طبعة القاهرة.

أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، طبعة القاهرة ١٩٦٤ م .
أبو يوسف : كتاب الخراج ، طبعة القاهرة ١٣٢٩ هـ .
أحمد دراج : جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٩ م .
أحمد دراج : الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ١٤ ، ١٩٦٦ — ١٩٦٧ م .
أحمد دراج : إيضاحات جديدة عن التحول في تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري ، الجمعية التاريخية المصرية ، الموسم الثقافي ١٩٦٧ — ١٩٦٨ م .
أحمد دراج : الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوروبية ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، مارس أبريل ١٩٦٩ ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٠ م .
أحمد دراج : الجانب الأثري في كتاب صبح الأعشى ، بحث في كتاب « أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى » الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ م .
آدم متـز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، طبعة بيروت ١٩٦٧م.
تقي الدين عبد الرحمن : التثقيف ، مخطوطة بمكتبة البودليان .
توفيق اليوزبكي : الوزارة ، نشأتها وتطورها في الدولة العباسية .
جمال الدين الشيال : مجموعة للوثائق الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨ م .
حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦م .
خليل بن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، طبعة باريس ١٨٩١ م .

عبد الحميد يونس السامرائي : السفارات في التاريخ الإسلامي حتى قيام الدولة
العباسية ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية دار العلوم – جامعة القاهرة ،
١٩٧٦ م . (لم تطبع) .
سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥م .
سلام شافعي محمود سلام : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ،
رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ م
(لم تطبع) .
سلام شافعي محمود سلام : أهل الذمة في مصر في العصرين الفاطمي الثاني
والأيوبي ، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة القاهرة ،
١٩٧٩ م (لم تطبع) .
سليمان الطماوي : عمر بن الخطاب ، طبعة دار الفكر العربي ، القاهرة .
البلاذري : أنساب الأشراف ، طبعة دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ م .
= = فتوح البلدان ، طبعة البيان العربي ، القاهرة .
البيهقي : تاريخ البيهقي ، ترجمة يحي الخشاب وصادق نشأت القاهرة ١٩٥٦م.
الجهشياري : الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ م .
الخالدي : المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا ، نسخة محفوظة بمكتبة
جامعة القاهرة مصورة عن المخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس .
السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، طبعة القاهرة ١٨٨١م .
= = = : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، طبعة القاهرة ١٣٥١ هـ.
الصولي : أدب الكتّاب ، طبعة القاهرة ١٣٤١ هـ .
الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دار المعارف بمصر .
الكندي : الولاة والقضاة ، طبعة بيروت .
فرج الهوني : النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية (منذ قيام
حكومة الرسول بالمدينة حتى نهاية الدولة الأموية) بنغازي ١٩٧٦ م .

قدامه بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذيه ، طبعة ليدن .
القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، طبعة دار الكتب المصرية .
الماوردي : الأحكام السلطانية ، طبعة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .
المسعـــودي : التنبيه والاشراف ، طبعة ١٩٣٨ م .
المقـــريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق .
= = : السلوك لمعرفة دول الملوك - تحقيق الدكتور زياده ، الجزء الأول والثاني ، وتحقيق الدكتور عاشور ، الجزء الثالث والرابع .
مجهـــول : إجابة السائل إلى معرفة الرسائل ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس .
محمد جمال الدين سرور : الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٢ م .
محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري ، دار الفكر العربي ١٩٧٦م
محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، طبعة دار المعارف بمصر .
محمد حميد الله الحيدرآبادي : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، طبعة لجنة التأليف ، ١٩٤١ م .
محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة .
محمد مصطفى زياده : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ١٩٤٩ م .
محي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المؤيد المنصور ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦٦ م .

مسكويه : تجارب الأمم ، طبعة اكسفورد ١٩٢١ م .
هلال الصابي : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، طبعة بغداد ١٩٤٨ م .
هشام سليم عبد الرحمن أبو رميله : نظم الحكم في الأندلس في عصر الخلافة ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م (لم تطبع) .
وهبه الزجيلي : نظام الإسلام ، بنغازي ١٩٧٤ م .
ياقوت الحموي : معجم البلدان ، طبعة بيروت .
يحي بن آدم : كتاب الخراج ، طبعة القاهرة ١٣٤٧ هـ .

AYALON,N : L'esclavage du Mamlouk, in Oriental notes and stu-dies, Jerusalem 1951.

" " " " : Studies on the structure of the mamlouk army, in BSOAS, London 1954.

DARRAG,A : L'Egypte sous le regne de Barsbay, Damas 1961.

GAUDEFROY-DEMOMBYNES/ : La Sgrie a l' epoque des Mam louks Paris 1923.

POLIAK : Feudalism in Egypt, Syria, palestine and Lebanon (1250 1500), London 1939

POPPER,W : Egypt and Syria under the circassian sultans (1382-1468 A. D) California, 1955.

QUATREMÉRE,E : Histoire des sultans Mamlouks, Paris 1837 1845. 9

STERN,S.M : Fatimid decrees· Original documents From the Fatimid Chancery, London 1964.

WIET, G : Les secretaires de la chancellerie en Egypte sous les mamlouks circassiens, Parice 1923.

دار الأصفهاني للطباعة بجدة